مؤلفات سعيد حوّى

دراسة وتقويم

تأليف

سليم الهلالي

الطبعة الأولى

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

الطبعة الأولى

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

أما بعد :

فإن الفُرْقة أمر قدريٌ واقع لا محالة لقوله تعالى:﴿ **وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ**[1] ﴾ وقوله ﷺ : (سألت ربي ثلاثا فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة،سألت ربي أن لا يهلك أُمتي بالسَّنَةِ[2] فأعطانيها،وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها،**وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها**[3]) . وقوله عليه السلام : (**وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين**[4]) .

لذلك لا يجوز إخفاء الخلاف وعلى الدعاة أن يكونوا صرحاء مع أنفسهم ومع الناس في أمر دعوتهم ، وأن يقولوا لهم الحقيقة - ومريض القلب تجرحه الحقيقة - ولا يخفوها عليهم لأنها لابد أن تظهر وتطفو على السطح مهما عملوا على تأجيلها شاءوا أم أبوا ، فذلك دليل صدقهم ، وسبب الاستجابة للحق .

---

(١) هود : ١١٨ - ١١٩

(٢) أي القحط والجدب

(٣) أخرجه مسلم

(٤) صحيح - أخرجه أبو داوود وأحمد وغيرهم وصححه ابن تيمية والشاطبي والألباني .

والحقيقة أن العاملين للإسلام مختلفون ، وهذا الاختلاف ليس محصوراً فيهم بل هو عام ومشترك بين جميع الدعوات والمبادىء ، لأنه قضاء نافذ من قضاء الله ، وسنةٌ من سنن اللَّهِ تعالى في الحياة .

وإظهار الأمور على حقيقتها واجب لنقيم الحجة لله ﴿ **لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وإنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ**(٥) ﴾ .

ومحاولة إخفاء الخلاف وكتمانه والتستر عليه وتجاهله ، أربابها آفاتٌ تنخر الصف الإسلامي ودوافعها أمور ثلاثة : **أولها**:الجهل بمقاصد الشرع وعدم الإحاطة بطبيعة هذا الدين وتجاهل لواقع البشرية ، والأجدر بصاحب هذه المنزلة أن يتخلى عن هذه المهمة ويترك المجال لغيره فإن للإسلام رجالا يعرفون من أين تؤكل الكتف ، **وثانيها**:فقدان الدليل ، فالخفافيش لا تعيش إلا في ليل مظلم ، فإذا الصبح أسفر انزوت وتلاشت ، ومن البديهي أن كل قول يعد ساقطاً مرفوضاً حتى يقام عليه الدليل . ولله در الشاعر حيث قال :-

والدعاوى إن لم تقيموا عليها بيِّناتٍ أصحابها أدعياء

ولذلك كان القرآن كثيراً ما يتحدى الخصوم بأن يأتوا بدليل على دعواهم فيقول لهم الحق تبارك وتعالى:﴿ **قُلْ هَاتُواْ بُرهَـٰنَكُمْ إنْ كُنتُم صَـٰدِقِينَ** (٦) ﴾ ،

---

(٥) الأنفال : ٤٢

(٦) البقرة : ١١١

ويقول مبكتاً:﴿ **قُلْ هَلْ عِندَكُم مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعونَ إِلاَّ الظَّنَّ وإِن أَنْتُم إِلاَّ تَخْرُصونَ قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَداكُمْ أجمعينَ**[٧] ﴾ ولولا ذلك لكان في إمكان من شاء أن يقول ما شاء وفي هذا من المفاسد أشياء ، **وثالثةُ الأثافي**:فإن في كل دعوة مندسين ونفعيين ومتاجرين يعبدون الله على حرف ، يرون مصلحتهم في التخفي ، فيمتطي أحدهم الدعوه ليحقق لنفسه الشهرة والجاه والمال ، فإذا ما بلغ غايته ، ونال مرامه ، مرق من الدعوة كما يمرق السهم من الرمية ، لذلك يجب تعريتهم ، ولا مناص من كشف حقائقهم دون أقنعة لكيلا يغتر الناظر إليهم من وراء الجدر ، ولا بد من العمل على تقليص نفوذهم ليتجنب شباب الصحوة الإسلامية شرهم ، فلا ينخدعون بما يلقون من زخرف القول غرورا .

وإخفاء الخلاف والظهور بمظهر الوحدة والائتلاف سبيل المغضوب عليهم حيث وصفهم خالقهم في كتابه المجيد:﴿ **تَحْسَبُهُمْ جَميعاً وَقُلوبُهم شَتّىٰ ذلِكَ بأَنَّهم قَومٌ لا يَعْقِلوُنَ**[٨] ﴾ فلو كانوا يعقلون لعملوا على اجتثاث الخلاف من أصوله فتوحدوا ، ولم يقروا الخلاف ، ويظهروا أمام خصومهم بمظهر الوحدة ، فإذا مادت الأرض من تحتهم أتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم . وعليه فإن الدعوة إلى إخفاء الخلافات بين العاملين للإسلام عن الناس دعوة إلى الاهتداء بسنن المغضوب عليهم ، والذين أُمرنا بمخالفتهم في كل شأن ، وحذرنا رسولنا ﷺ من التشبه بهم والسير على خطواتهم .

---

(٧) الأنعام : ١٤٨ ـ ١٤٩
(٨) الحشر : ١٤

والفرقة وإن كانت واقعة لا مفر منها إلا أننا مكلفون شرعاً بالأخذ بأسباب القضاء عليها ، وتوحيد الفكر أولى وأنفع خطوات توحيد الصف المسلم ، لأنه متى تجانست الأفكار والغايات والسبل وجدت ثمرة المحبة والمودة التي هي أعظم أسباب وحدة الصف لقوله ﷺ : (**وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل بأسهم بينهم**[٩]) فبين أن الإعراض عن هدى الله وعدم تحكيم كتاب الله وسنة رسوله سبب في الفرقه ، فإذا أخذنا بمفهوم مبدأ المخالفة كان التمسك بالكتاب والسنة والاعتصام بحبل الله سبباً في الائتلاف والوحدة وهذا معنى قوله تعالى:﴿ **وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا**[١٠] ﴾ .

وهذه الدوافع جعلتني أمسك قلمي لأخط دراسة وتقويماً لما كتبه الأستاذ سعيد حوى بعد تردد طويل قهرته باستخارة الله .

* وهذا البحث ليس هجوماً بل وضع حقائق على بساط البحث لنصل إلى وضع أمثل ، وأفضل وأكمل ، ما دام بوسعنا أن نفعل .
* وليس تتبعاً للعورات ، ونشراً للغسيل ، إنما مواجهة لأوضاعنا بأنفسنا .
* وليس خصومة إنما نطرح أمام الأستاذ سعيد حوى ومريديه موضوع الخلل ، لنسترعي انتباههم لأمر لم يكونوا ملتفتين له لتعديله قبل فوات الأوان .

---

(٩) حديث حسن أخرجه ابن ماجة وأبو نعيم في الحلية والحاكم وصححه ووافقه الذهبي انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة « ١٠٦ »

(١٠) آل عمران : ١٠٣

* وليس تركيزاً على السلبيات ونسيان الإيجابيات ، فإن الإيجابيات يجب أن تكون القاعدة في حياتنا ، والأصل في انطلاقتنا ، وأن تكون السلبيات شواذاً ، لذلك نسلط عليها الضوء لتقليصها بل لاجتثاثها ، ومن المعلوم أن معرفة الأخطاء اختصار للطريق إلى الحقيقة ، وأظن أن هذا البحث سيثلج صدر الأُستاذ سعيد حوى ، وخاصة أن من أصول دعوتهم:(**أن يتقبل كل إرشاد مصحوب بالدليل**) الأَصل السابع . وأنه:« **لا مانع من التحقيق العلمي النزيه في مسائل الخلاف في ظل الحب لله والتعاون على الوصول إلى الحقيقة من غير أن يجر ذلك إلى المراء المذموم والتعصب** » الأَصل الثامن

وإن نَقَمَ مني لأني قَدِمتُ من خارج حلمه الثاني « وأحب في ختام هذه الجولات أن ألخص ما أحلم به لإخواني المسلمين في باب الفقهين الكبير والأكبر . . . أن يوجد العلماء المختصون في هذه العلوم وأن يكونوا من أبناء الحركة الإسلامية نفسها حتى لا يقع صدام في التصورات والمفاهيم[11] » فحسبي أني أرى المصلحة ما وافق الشرع . وأرجو من الشباب أن يتبعوا الدليل ، ويرجحوا المصلحة الإسلامية ، ولا يتعصبوا لقول فلان ورأي فلان .

وسنحتكم وإياهم إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ بفهم خير القرون ، ولن يتصور فكر وفهم أصح وأقوم من فهم السلف الصالح رضوان الله عليهم ، لأنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ، ولا ريب أن الحق كل الحق فيما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم والتابعون ومن تبعهم بإحسان من الأئمة الأعلام رحمهم الله تعالى .

وكل خير في اتباع من سلف   وكل شر في ابتداع من خلف

---

(١١) جولات في الفقهين الكبير والأكبر وأصولهما ص ١٦٣

وإن المتبحر في الأدلة كتابا وسنة وإجماعاً ، ليستنبط وجوب فهم الإسلام في ضوء منهاج السلف الصالح ، الذي هو فهم الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين والأئمة المشهود لهم بالبر والتقى ، الذين ساروا على هذا المهيع الرشيد ، وسلكوا هذا المنهج السديد ، لأنه الفهم المجمع على صحته على توالي القرون ، وعليه لا يجوز لأي فرد وكيفما كان شأنه أن يفهم غير الفهم السلفي ، ومن رغب عنه إلى مبتدعات الخلف المحفوفة بالمخاطر ، وغير مأمونة الجانب ، وأثرها في تفريق المسلمين وتشتيت شملهم معروف لا ينكر ، ومعلوم لا يجحد ، فهو إنسان غير كامل الرشد ، قد أسس بنيانه على شفا جرف هار .

لماذا الفهم السلفي فقط ؟

١ ـ إن السلف الصالح مشهود لهم بالخيرية نصاً واستنباطاً ، قال تعالى : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس** ﴾ ، وقال تبارك وتعالى : ﴿ **رضي الله عنهم ورضوا عنه** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه** ﴾

وقال ﷺ في الحديث الذي أخرجه الشيخان وغيرهما : (**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**) .

٢ ـ وفهم السلف الصالح شهد له الرسول ﷺ بالاستقامة ، ولأصحابه بالنجاة عندما تتمزق الأمة الإسلامية شيعاً وأحزاباً ، كل حزب بما لديهم فرحون ؛ قال ﷺ:(ألا إن مَن قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين ، ثنتان وسبعون في النار ،

وواحدة في الجنة ، وهي الجماعة[١٢]) وفي رواية للترمذي (قالوا : من هي يا رسول اللّه ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابي)

٣ - لو رُفض هذا التخصيص لتنكب المسلم الصراط السويَّ ، واتبع سبل الغيِّ ، واجتالته الشياطين ، فكان ولا بد من التمييز ، والمفاصلة الفكرية ، لأن الكتاب والسنة تعرضا لعدة محاولات فهم - كالاعتزال ، والإرجاء ، والتشيع ، والخوارج ، والتصوف - يجب ردها مهما كان مصدرها فلسفة يونانية ، أو فكراً وثنياً برهمياً - أما فهم السلف فهو امتداد لمشكاة النبوة ، فإن قيل : ليس من شك أن فهم الرسول ﷺ وأتباعه هو المنهج الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لكن ما الدليل على أن الفهم السلفي هو فهم الرسول ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم ؟ نقول وبالله التوفيق :

١ - إن المفاهيم المذكورة آنفاً متأخرة عن عهد النبوة ، والخلافة الراشدة ، ولا يُنسب السابق للاحق بل العكس . فتبين أن الفئة التي لم تسلك هذه السبل ، ولم تتبع هذه الفرق ، هي الباقية على الأصل .

٢ - لسنا نجد في فرق الأمة من هم على موافقة الصحابة رضي الله عنهم غير أتباع السلف الصالح من أهل السنة والجماعة ، دون سائر الفرق .

فأما المعتزلة ، فكيف يكونون موافقين للصحابة رضي الله عنهم وقد طعن رؤوسهم في أكثر الصحابة ؟ وأسقطوا عدالتهم ، ونسبوهم إلى الضلال ، كواصل بن عطاء حيث أجاز على أتباع علي رضي الله عنه أن يكونوا فسقة ، كابنيه ، وابن عباس ، وعمار بن ياسر ، وأبي أيوب الأنصاري رضي الله عنهم وأجاز على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنهاالفسق ، وطلحة والزبير

---

(١٢) سبق تخريجه . انظر تعليق (٤) .

رضي الله عنهما حتى قال : لو شهد علي وطلحة والزبير على باقة بَقْل لم أحكم بشهادتهما[١٣] ، وعلى شاكلته زاهد المعتزلة عمرو بن عبيد ، والنَّظّام فقد زعم أن أبا هريرة رضي الله عنه كان أكذب الناس ، وطعن في أميرالمؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وزعم أنه شك يوم الحديبية في الإسلام ، وطعن في عثمان رضي الله عنه وعاب على ابن مسعود رضي الله عنه وأسقط عدالته ، لروايته قول الرسول ﷺ :(السعيد من سعد في بطن أمه) فكيف يكون على سيرة الصحابة رضوان الله عليهم من يفسق أكثرهم ، ويفند فهمهم ، ويراهم من أهل النار ، وخاصة من شهد له الرسول ﷺ بأنه من أهل الجنة ، وقد تواترت الأحاديث في ذلك[١٤]؟! .

ودين الشيعة (الروافض) سراب بقيعة ، فقد زعموا أن الصحابة رضوان الله عليهم ارتدوا بعد النبي ﷺ سوى ثلاثة [١٥] ، ولا يزال بقاياهم يلعنون الشيخين رضي الله عنهما ، ويصفونهما بطاغوتي قريش ، أو صنمي قريش ، أو الجبت والطاغوت [١٦] ، وعندهم صلاة تسمى صلاة اللعن ينشدون فيها دعاء مخترعاًمبتدعاً فحواه « **بسم الله الرحمن الرحيم . اللهم العن صنمي قريش وجبتيهما وطاغوتيهما وافكيها وابنتيهما اللذين خالفا أمرك وأنكرا وحيك وعصيا رسولك وقلبا دينك وحرفا كتابك** » وليس للكفرة بالصحابة أسوة ولا قدوة ، وكيف ينجو من عذاب الله من اتخذ لعن الصحابة رضوان الله عليهم عبادة لتقربهم إلى الله زلفى ؟ وما أوفر نصيب هؤلاء من قول

---

(١٣) الفرق بين الفرق،عبد القاهر البغدادي ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار المعرفة ص (١١٩ - ١٢٠)

(١٤) أنظر أخبار النظام في الملل والنحل (١/٥٣) ومقالات الإسلاميين (١/٢٧٧) والفرق بين الفرق ص (١٤٦)

(١٥) أنظر الكافي للكليني (١١٥) ، ورجال الكشي ص (١٢ ، ١٣)

(١٦) ننصح بمراجعة « وجاء دور المجوس » د . عبد الله الغريب و « موقف الخميني من الشيعة والتشيع » محمود سعد ناصح .

الباري جل جلاله في محكم التنزيل:﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَآزَرَهُ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً[17] ﴾ .

وأما **الخوارج** الذين مرقوا من الدين ، وشذوا عن جماعة المسلمين فمن ضروريات مذهبهم أن يكفروا علياً وابنهُ وابن عباس ـ حبر الأمة ، وترجمان القرآن ـ وعثمان وعائشة وطلحة ومعاوية رضي الله عنهم أجمعين ، ولا يكون على سمت الصحابة رضي الله عنهم من يكفر أكثرهم .

وأما **الصوفية**[18] فأمرهم فرطاً ، وهم أهون على الله من أن يكونوا ورثة أنبيائه وقد سخروا من ميراث الأنبياء عليهم السلام ـ والأنبياء عليهم السلام لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ـ وقالوا:لا حاجة لنا بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام فنحن على اتصال مباشر مع الحقيقة المطلقة حيث نغترف من فيضها الأزلي دون واسطة ، فقال كبيرهم الذي علمهم الكذب : « حدثني قلبي عن ربي » فمثلهم كمثل الشيعة الشنيعة الذين قالوا:« حدثني جدي عن ربي »﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً ﴾

وأما **المرجئة** فيزعمون أن إيمان المنافقين الذين مردوا على النفاق ،

---

(١٧) الفتح : ٢٩ قال الشيخ محمود الآلوسي في تفسيره روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (١١٦/٢٦) :

« وفي المواهب أن مالكاً استنبط من هذه الآية تكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة (رضي الله عنهم) فإنهم يغيظونهم . ومن غاظ الصحابة فهو كافر » .

(١٨) انظر تلبيس إبليس لابن الجوزي ، فقد هتك أسرار باطلهم .

وكفروا بعد إيمانهم ، كإيمان السابقين الأولين من المهاجرين والأنصاررضوان الله عليهم ،وكإيمان الملائكة المقربين عليهم السلام[١٩] ثم نقول كيف يكون هؤلاء موافقين للصحابة رضوان الله عليهم وهم لا يقبلون شيئاً مما روى الصحابة رضوان الله عليهم عن رسول الله ﷺ في العقائد والأحكام بل يتبعون نفايات الحضارات الغابرة ؟.

فتبين أن المقتدين بالصحابة رضوان الله عليهم من يعمل بما ثبت بالرواية الصحيحة الثابتة في أحكامهم وسيرهم ، وذلك سنة أهل الحديث رحمهم الله تعالى من أهل السنة والجماعة دون ذوي البدع والأهواء ، وصح بصحة ما عرضنا ، وقوة ما ذكرنا تحقيق نجاتهم لحكم الرسول ﷺ بنجاة المقتدين بسنته ﷺ ، وسنة أصحابه الراشدين المهديين رضوان الله عليهم من بعده .

٣ ـ وهم الطائفة الظاهرة المنصورة ، والفرقة الناجية الباقية ، المعتصمة بالعروة الوثقى (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة) وقد فسر العلماء الفحول ، المشهود لهم بالفقه والسداد في القول هذه الطائفة بأنهم أهل الحديث ـ وستأتيك أقوالهم بعد حين إن شاء الله ـ ، منهم على سبيل التذكير : يزيد بن هارون ، أحمد بن حنبل ، البخاري ، الخطيب البغدادي ، عبدالله بن المبارك ، علي بن المديني . الشاطبي رحمهم الله جميعاً .

٤ ـ وأكثر الفرق بادت فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ؟ وهذا دليل على أن أهل السنة مادة الإسلام وأهله ، لأنهم هم الباقون ، والبقاء للأصلح لقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ

(١٩ انظر كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .

في ٱلأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلأَمْثَالَ (٢٠) ﴾ هذا بالرغم من كيد كل الفرق لأهل السنة والعمل حثيثاً على نسف بناء الإسلام . وهو تفسير واقعي لقول الرسول ﷺ المذكور آنفا وهو دليل على أن الزمان لا يخلو من قائم لله بحجة ، فلو كانت الفرق المذكورة هي الناجية لخلت الأرض من أهـل الحق ، وهذا مخالف للنص الصحيح ، فتقررأن الحق ما عليه أهل السنة والحديث .

٥ ـ وذلك أنها إذا ذكرت لا تذكر إلا مقرونة بالرجال ، فإذا ذكرت المعتزلة ذكر واصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد ، وإذا ذكرت الجهمية ذكر الجهم بن صفوان ، وهكذا دواليك في سائر الملل والنحل ، إلا أهل السنة والجماعة والحديث فالله وحده مؤسسها ومشرعها ، وليس لأحد من البشر كائنا من كان ومهما علا وسما أن يدعي تأسيسها وتشريعها ، حتى النبي المعصوم ﷺ إنما كان دوره التبليغ الكامل الشامل ، ولم يكن له من الأمر شيء ، وعليه فإن كل فئة تستمد بقاءها من مؤسسها ، فكـل ملة رفع قـواعدهـا وأسس بنيانها رجـل ستبيد ، ودعوة السلف ستبقى حتى ترث الأرض جميعاً ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

٦ ـ وكل فرقة مهما كانت عريقة في الضلال فإنها لا تتجاسر على الإفصاح بغير مذهب الحديث والسنة ، وكل مبتدع مهما أبطن الانحراف لا يستطيع إلا بمذهبهم يتظاهر ، وكل ملة تحتج بطرف من الحق الذي عليه أهل الحديث ، فالخوارج تحتج برواياتهم (لا تزال طائفة . . .) ، والقاعد يحتج برواياتهم (من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه) ، والمرجىء يحتج برواياتهم (من قال لا إله إلا الله . . . وإن زنى وإن سرق . . .)، والمخالف

---

(٢٠) الرعد : ١٧

يحتج برواياتهم (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن . . .) ، والقدري يحتج برواياتهم (كل مولود يولد على الفطرة . . .) ، والرافضة تحتج برواياتهم (ليردن علي الحوض أقوام ثم ليختلجن دوني . . .) ، وأهل الحديث جمعوا الحق من أطرافه،والإسلام بحذافيره، فخرج سبيلهم من بيْن إفراط وتفريط بيضاء نقية واضحة للسالكين .

الحد الفاصل بين النقد والتجريح

أقول مستعيناً بالله ، ومتوكلاً على الحي الذي لا يموت قبل البحث في هذا الأمر لا بد من معرفة الغيبة ، والقول الجامع فيها ما جاء من قوله ﷺ : **(أتدرون ما الغيبة ؟) قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : (ذكرك أخاك بما يكره) قيل:أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : (إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بَهَتَّهُ**[٢١] **) . وقوله : (الغيبة أن تذكر الرجل بما فيه من خلفه)**[٢٢] .

وقد اتفق أهل العلم على تحريمها ، لأنه ثابت نصاً بالكتاب لقوله تعالى : ﴿ **وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُم بَعضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُم أن يأكُلَ لَحْمَ أخيهِ مَيْتاً فَكرِهْتُموهُ وٱتّقوُا ٱللهَ إِنّ ٱللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ** [٢٣] ﴾ والسنة ، وأحاديث النهي عن الغيبة ثابتة مع بيان ماهيتها ، وإيضاح معناها ، وقد تقدم ذكر بعضها ، فالغيبة : نهش أعراض المسلمين ، وخاصة الذين يظهر من سيرتهم الخير

---

(٢١) أخرجه مسلم وأبو داود وغيرهم . و (بَهَتَّهُ : أي قلت فيه البهتان ، وأفتريت عليه الكذب)
(٢٢) صحيح الجامع الصغير للألباني ح (٤٠٦٢) .
(٢٣) الحجرات : ١٢

والاستقامة ، فليس من مكارم الأخلاق وصالحها أن يتجسس المسلم على أخيه ، ويتتبع عوراته ، ويظن فيه السوء ، وإنما خلاف ذلك مطلوب شرعاً ، إن وجد عيباً ستر عليه ، وإن رأى خطأ أرشده بالتي هي أحسن للتي هي أقوم .

وذكر الرجل من خلفه بما يكره إن كان لغرض شرعي ، لا يمكن الوصول إليه إلا به فجائز [٢٤] وقد حصر بعض العلماء هذه الأغراض الشرعية في قولهم :

القدح ليس بغيبة في ستة ... متظلم ومعرف ومحذر
ومجاهر فسقاً ومستفت ومن ... طلب الإعانة في إزالة منكر

إذن ما يتعلق بأوضاع المسلمين الخاصة لايجوز الحديث عنها ، وإنما يجوز النصح بشروطه المعلومة في فقه الدعوة المستنبط من الكتاب والسنة ، وما يتعلق بدين الله فلا يجوز السكوت عنه ، من ذلك أصحاب البدع والأهواء الذين ينشرون بدعهم ، والمقالات التي تكتب في الصحف والمجلات والمؤلفات ، ومواقف الجماعات الإسلامية الخالية من الأدلة الصحيحة ، والمخالفة لهدي الرسول ﷺ هذه أُمور من الأمور التي يجب تحديد موقف منها .

ولنا في ذلك من أهل العلم بالحديث وأصوله أسوة حسنة ، الذين صرحوا بجواز بل بوجوب ذكر الرواة بأسماءهم وعيوبهم في الرواية لِيُعْرَفوا ، فإذا عدنا إلى مؤلفاتهم في الجرح والتعديل - وهي مفخرة من مفاخر سلفنا الصالح رحمهم الله تعالى - نجدهم تعرضوا للأعلام سواء الذين يُحدِّثون أو يُفْتون ، وهذه أقوالهم دليل صدق لمن ألقى السمع وهو شهيد ، قال الحافظ

---

(٢٤) انظر « رفع الريبة عما يجوز وما لا يجوز من الغيبة » ، الشوكاني . و « شرح صحيح مسلم » النووي (١٦/١٤٤) .

الذهبي رحمه الله تعالى : « فأعلى العبارات في الرواة المقبولين : ثبت حجة ، وثبت حافظ ، وثقة متقن ، وثقة ثقة ، ثم ثقة صدوق ، ولا بأس به ، وليس به بأس ، ثم محله الصدق ، وجيد الحديث ، وصالح الحديث ، وشيخ وسط ، وشيخ حسن الحديث ، وصدوق إن شاء الله ، وصُوَيْلِح ، ونحو ذلك .

وأردى عبارات الجرح : دجال كذاب ، أو وضاع يضع الحديث ، ثم متهم بالكذب ، ومتفق على تركه ، ثم متروك ليس بثقة ، وسكتوا عنه ، وذاهب الحديث فيه نظر ، وهالك ، وساقط ، ثم واه بمرة ، وليس بشيء . وضعيف جداً ، وضعفوه ، ضعيف وواه ، ومنكر الحديث ، ونحو ذلك ، ثم يضعف وفيه ضعف ، وقد ضعف ليس بالقوي ، ليس بحجة ، ليس بذاك ، يعرف وينكر ، وفيه مقال تكلم فيه ، لين سيء الحفظ ، لا يحتج به ، اختلف فيه ، صدوق لكنه مبتدع ، ونحو ذلك من العبارات التي تدل بوضعها على اطراح الراوي بالأصالة أو على ضعفه أو على التوقف فيه ، أو على جواز أن يحتج به مع لين ما فيه(٢٥) »

هذه اصطلاحات السلف في الجرح والتعديل ، وهذا العلم من أنفس العلوم في تاريخ البشرية بله تاريخنا ، ويحاول الغربيون أخذه عن المسلمين ، وبفضل الله نحن الآن نتحدث عن الرسول ﷺ وكأننا ننظر إليه .

وهذا العلم أظهر الله به أنوار الشرع ، وشموس العدل ، وهبت رياح الإسلام فاقتلعت البدع ، وقصمت ظهور أهلها ، وانكسر نفوس أهل معاصي الله ، وخفقت رايات التوحيد في أقطار الأرض ، واضمحل جَوَلان الباطل في جميع البلاد ، قال العلامة الشوكاني رحمه الله تعالى: « وأما الصورة الرابعة : قد

---

(٢٥) ميزان الإعتدال (١/ ٤) للذهبي . وأنظر التقريب (١/ ٤ ـ ٥) للحافظ ابن حجر

جعلها النووي رحمه الله في كلامه السابق (عن الأغراض الشرعية التي تجوز فيها الغيبة) على أقسام خمسة :

القسم الأول : الجرح والتعديل للرواة والمصنفين والشهود واستدل على جواز ذلك بل على وجوبه بالإجماع ، وكلامه صحيح . واستدلاله بالإجماع واضح . فإنه ما زال سلف هذه الأمة وخلفها يجرحون من يستحق الجرح من رواة الشريعة . ومن الشهود على دماء العباد وأموالهم وأعراضهم ، ويعدلون من يستحق التعديل ولولا هذا التلاعب بالسنة المطهرة لكثر الكذابون ، واختلط المعروف بالمنكر ، ولم يتبين ما هو صحيح مما هو باطل ، وما هو ثابت مما هو موضوع ، وما هو قوي مما هو ضعيف ، للقطع بأنه مازال الكذابون يكذبون على رسول الله ﷺ ، وقد حذر رسول الله ﷺ من ذلك ، وقال:(إنه سيكذب عليّ فمن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار) وثبت عنه ﷺ في الصحيح أيضاً أنه قال:(إن كذباً علي ليس ككذب على أحدكم) الحديث ، وثبت عنه ﷺ في الصحيح أنه قال:(خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يفشو الكذب) ففيه دليل عِلى أن الكذب قد كان قبل انقراض القرن الثالث ، ولكن من غير فشو ثم فشا بعده ، وبهذا يعرف أن النبي ﷺ قد أخبر بأنه سيكذب عليه خصوصاً ، ويفشو الكذب عموماً ، ثم وقع في الخارج ما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ فإنه لم يزل في قرن من القرون كذابون على رسول الله ﷺ ، ويضعون الأكاذيب المروية عن رسول الله ﷺ ويحدثون بها ، فلولا تعرض جماعة من حملة الحجة لجرح المجروحين وتعديل العدول ، وذبهم عن السنة المطهرة ، وتنبيههم لكذب الكذابين لبقيت تلك الأحاديث المكذوبة من جملة الشريعة ، وعمت بها البلوى . فكان قيام الأئمة بهذه العهدة من أعظم ما

أوجبه الله على العباد ، ومن أهم واجبات الدين ومن الحماية للسنة المطهرة فجزاهم الله خيراً وضاعف لهم المثوبة ، فلقد قاموا قياماً مرضياً ، وخلصوا عباد الله من التعبد بالكذب ، وَصَفُّوا الشريعة المطهرة ، وأماطوا عنها الكدر والقذر ، وأخرسوا الكذابين وقطعوا ألسنتهم ، وغلغلوا رقابهم ، والحمدلله على ذلك .

وهكذا جرح الشهود وتعديلهم ، فإنه لو لم يقع ذلك لأريقت الدماء وهتكت الحرم واستبيحت الأموال بشهادات الزور ، التي جعلها رسول الله ﷺ من أكبر الكبائر وحذر عنها .

والحاصل : أن كليات الشريعة وجزئياتها وقواعدها وإجماع أهلها تدل أوضح دلالة على أن هذا القسم لاشك ولا ريب في جوازه بل في وجوب بعض صوره، صونا للشريعة ، وذباً عنها ودفعاً لما ليس منها ، وحفظاً لأموال العباد ودمائهم وأعراضهم ، وهذا كله داخل في الضروريات الخمس المذكورة في علم الأصول . ومما يدل على ذلك دلالة بينة ، ماورد في النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمةالمسلمين وعامتهم وخاصتهم فإن بيان كذب الكذابين من أعظم النصيحة الواجبة لله ولرسوله ، ولجميع المسلمين ، وأدلة النصيحة متواترة وكذلك جرح من شهد في مال أو دم أو عرض بشهاده زور فإنها من النصيحة التي أوجبها الله على عباده وأخذهم بتأديتها وأوجب عليهم القيام بها[٢٦] »

وإذا كان أئمتنا قد اعتبروا هذا العلم من أفضل القربات إلى الله ، فإنا على آثارهم لسائرون ، ولرياضهم منتجعون ، قال ابن تيمية رحمه الله:« . . . وقال بعضهم لأحمد بن حنبل:إنه يثقل علي أن أقول فلان كذا وفلان كذا . . .

---

(٢٦) رفع الريبة ، الشوكاني (طـ الدار السلفية ص ٢٤ ـ ٢٧)

فقال:إذا سكتَّ أنت وسكتُّ أنا فمتى يعرف الجاهل الصحيح من السقيم، ومثل أئمة البدع من أهل المقالات المخالفة للكتاب والسنة والعبادات المخالفة للكتاب والسنة . . . فإن بيان حالهم وتحذير الأمة منهم واجب باتفاق المسلمين حتى قيل لأحمد بن حنبل : الرجل يصوم ويصلي ويعتكف أحب إليك أو يتكلم في أهل البدع فقال : إذا قام وصلى واعتكف فإنما هو لنفسه . . . وإذا تكلم في أهل البدع فإنما هو للمسلمين وهذا أفضل ، فتبين أن نفع هذا عام للمسلمين في دينهم من جنس الجهاد في سبيل الله إذ تطهير سبيل الله ودينه ومنهاجه وشريعته ودفع بغي هؤلاء وعدوانهم على ذلك واجب على الكفاية باتفاق المسلمين ولولا من يقيمه الله لدفع ضرر هؤلاء لفسد الدين ، وكان فساده أعظم من فساد استيلاء العدو من أهل الحرب . . . فإن هؤلاء إذا استولوا لم يفسدوا القلوب وما فيها من الدين إلا تبعاً وأما أولئك فهم يفسدون ابتداءً »[٢٧] ويقول في ذم أهل البدع وبيان فضل من تصدى لهم بالحجة والبرهان فأفحمهم بقوة البيان ، وقطع جهيزتهم بالسنة والقرآن:« الردود على المعتزلة والقدرية ، وبيان تناقضهم فيها قهر المخالف ، وإظهار فساد قوله ، هي من جنس المجاهد المنتصر ، فالراد على أهل البدع مجاهد ، حتى كان يحيى ابن يحيى[٢٨] يقول : الذب عن السنة أفضل من الجهاد»[٢٩]

من هذه الأدلة العلمية نعلم يقيناً وجوب التحدث عن الجماعات الإسلامية ، والعلماء ، وما يكتب في الصحف والمجلات والمؤلفات ، إذا كنا

---

(٢٧) مجموعة الرسائل والمسائل ، ابن تيمية (٤/ ١١٠)
(٢٨) هو ابن بكير التميمي النيسابوري شيخ الشيخين (البخاري ومسلم) توفي عام ٢٢٦ هـ .
(٢٩) نقض المنطق : ابن تيمية ، تحقيق محمد حمزه وسليمان الصنيع (ط الاولى القاهرة سنة ١٩٥٢ ص ١٢)

نعلم أدلة صحيحة تخالف ماذهب إليه الآخرون، وهذا الواجب له شروط كثيرة أهمها :

١ ـ التثبت من القول الذي نبغي الرد عليه ، لأنه قد يجيء إنسان ويقول : قرأت لفلان كذا وكذا ، أو سمعت منه كذا وكذا ، فيسارع أحد الكتاب ويرد عليه دون أن يعود إلى ما كتب ، أو يعود إليه ليتبين صحة ما نسب إليه ، وقد قيل : « **آفة الأخبار رواتها** »

ولقد علّمنا الله هذا المبدأ المهم الذي لو أخذ الإسلاميون به لتقلصت معظم الخلافات الموجودة ، فقال عز وجل : ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ [وفي قراءة متواترة : فتثبتوا] أَن تُصِيبُوا قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ**(٣٠) ﴾

٢ ـ قراءة الكلام أو سماعه بنفس راضية ، وروح طيب ، وقلب مطمئن ، ليس بنية النقد ، وقصد التجريح ، وأن يحاول أن يلتمس لأخيه عذراً ، ويجد له مخرجاً ، فإن وجد فبها ونعمت وإلا فالحق أحق أن يتبع . وإرضاء الله غاية لاتترك ، وإرضاء الناس غاية لا تدرك ، ففضل مالا يترك على مالا يدرك .

وخلو الساحة الإسلامية من هذا الأمر قضية مؤسفة في واقعنا المعاصر ، فهناك أناس من الناس يتوهمون أنهم أوصياء على العلوم الإسلامية تراث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يورثوا ديناراً ولا درهماً كذلك العلماء ، فترى أحدهم إذا وقعت عيناه على كتاب امتدت يداه

---

(٣٠) الحجرات : ٦

تتفقده وتتفحصه وتبحث عن مطعن في مؤلف الكتاب ،عسى أن تصيب منه مقتلاً ، فإن لم تجد رمته بسهامها الكليلة ، وحجارتها الطائشة .

ورحم الله سلف هذه الأمة ، فإنهم على علم وقفوا ، وببصر ثاقب قد كفوا ، وهم على كشف الأمور أقوى ، وبفضل كانوا أحرى ، فقد تكلموا منه بما يكفي ، ووصفوا منه ما يشفي ، فما دونهم فمقصر ، وما فوقهم محسر ، لقد قصر عنهم آخرون فغلوا ، وإنهم بين ذلك لعلى صراط مستقيم .

لقد استنبطوا من قوله تعالى : ﴿ وإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ ٱلْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيد[٣١] ﴾ أنه لا يوجد كتاب غير كتاب الله لا يأتيه الباطل فقالوا : « ليس أحد بعد النبي ﷺ إلا ويؤخذ من قوله ويترك إلا النبي ﷺ [٣٢] » وقال الشافعي رحمه الله تعالى : « أبى الله أن يتم إلا كتابه » وقال العماد الأصفهاني « إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يوم إلا قال في غده : لو غُيِّرَ هذا لكان أحسن ولو زيد كذا لكان يستحسن ، ولو قُدِم هذا لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر[٣٣] »

٣ ـ إن تمت هذه الشروط ، وتأكد أن الكلام فيه ضرر ، فعليه أن يرد ، ومن حقه أن يرد ، والقاعدة المعروفة تتضمن « من ألف فقد إستهدف » وطالما كتب الأول للناس ، فعلى الثاني أن يصحح للناس ، لأن المشكلة تجاوزت الإثنين ، وأصبحت عامة للمسلمين .

---

(٣١) فصلت : ٤٢

(٣٢) هذه الكلمة الطيبة المسكوبة بأسلوب الحكمة البالغة التي اشتهرت خرجت من فيِّ ترجمان القرآن وحبر الأمة ابن عباس رضي الله عنهما ، وأخذها عنه مجاهد رحمه الله ، وأخذها عنهما إمام دار الهجرة مالك بن أنس وعنه انتشرت ، ثم أخذها الإمام أحمد بن حنبل انظر « جامع بيان العلم وفضله » لابن عبد البر (٢/ ٩١) ، و « الإحكام في أصول الأحكام » لابن حزم (٦/ ١٧٩) ، و « الفتاوى » لتقي الدين السبكي (١/ ١٤٨) .

(٣٣) إعلام الموقعين (١/مقدمة « م »)

٤ ـ هذه الأمور ذات بال ، وحسبنا أن نعلم أن أعداء الإسلام يروجون الأكاذيب والأباطيل الكثيرة عن الدعاة ، وشعارهم:إكذب واكذب عسى أن يصدقك الناس .

٥ ـ والمسلم من خُلُقِهِ التثبت في الرواية ، وأن يناقش الأمور ، ولا ينقل إلا القضايا التي في نقلها فائدة وعائدة ، وإذا أراد إنسان أن يرد بعد الأخذ بهذه الضوابط فعليه أن يحرص على الأدلة ، وأن يستخدم الأساليب الحسنة ، والألفاظ الإسلامية ، ويتجنب الكلمات النابية ، وأن يقبل الحق إذا تبين له ، والمخلص أوابَ للحق لأنه ضالته فحيثما وجده فهو أولى الناس به .

وهناك ناس كالشاة العائرة بين الصفين يقولون : ليس من المصلحة أن نكتب المقالات ، ونؤلف الكتب ، وندبج الردود على الإسلاميين ، لأن أعداء الإسلام سيحققون انتصارات على حساب الإسلام .

إن الانحرافات يجب تحذير المسلمين منها ، والكتابة عنها ، وماذا سيقول أعداء الله شيء آخر ، المهم أن يرضى الله تعالى بل إن الذين وقعوا في بعض الأباطيل خدموا أعداء الإسلام شعروا أم لم يشعروا .

وثمة رأي يطرحه بإلحاح ناقلوه ، ويتوهم فيه الصحة قائلوه ، إنه لا يجوز أن نتطاول على أعلام الدعوة الإسلامية المعاصرة ، وأصحاب هذا الرأي لا يهتمون بما يكتب بل يتوقفون عند حد قولهم الآنف ، وكأنه أمر بدهي لايأتيه الباطل ، ولا يتطرق إليه الشك ، وفي هذا القول انحراف .

هناك أعلام وهناك حق ، فلماذا لا يهتمون بالحق ؟ ولماذا لا يكون الحق أهم من الأعلام ؟ ومن ثم هؤلاء الأعلام هل هم معصومون ؟ يقولون نحن لا نؤمن بعصمة أحد إلا الأنبياءعليهم السلام ، إذا كنتم لا تؤمنون إلا بعصمة

الأنبياء عليهم السلام ، فلماذا لا تتكلمون عن أخطاء الأعلام ليتجنبها الأتباع الذين لهم في أعناقكم واجب النصيحة والتحذير من كل إنحراف ؟ ورحم الله القائل : « ويل للأتباع من عثرات العالم » لأن زلةَ العالِم زلة العالَم .

ولماذا يتكلم هؤلاء الأعلام عن أخطاء وقع فيها الأولون ؟ وهؤلاء القوم لا يكادون يذكرون بجانب علمهم ، وفضلهم ، وجهادهم .

من المعلوم أن الرجال يقاسون في قربهم أو بعدهم من الحق ، والأصل الالتزام بالإسلام ، والحرص على الدليل وعلى سلامة المنهج ، ورضي الله عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب القائل : « يعرف الرجال بالحق ولا يعرف الحق بالرجال » .

هؤلاء صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يختلفون في فهم القضايا،واختلافاتهم لم تزدهم في أعيننا إلا إجلالا ، وفي قلوبنا إلا حباً وتقديراً ، فكيف يحرص ناس على تعظيم بعض الأسماء التي أشربوها في قلوبهم ؟ ! وخُيِّل إليهم من تعصبهم أنها أعلام وما هي بأعلام ، إن الحق أقوى من الأعلام في القديم والحديث .

إن الحق الذي يستمد قوته من الأدلة الصحيحة أقوى من كل شيء ، وعندما تؤخذ الأمور على حساب الدليل تنحرف الأمة ، ويزيغ العمل .

وإنك لتجد مواقف كثيرة يقبلها الإسلاميون لأنها صدرت من فلان ، دون بحث عن الحق ، ولربما أعرضوا عن أخرى فإذا قيل لهم:إن فلاناً هو قائلها عضوا عليها بالنواجذ ، وكأن فلاناً مشكاة الحق . . . هذا مرض عضال علينا

أن نحذره ، ونكيل لأصحابه بالصاع كيل السندره ،ولو وقعنا نحن فيه ﴿ يَأَيُّهَا ٱلذينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَآءَ بالقِسْطِ ولا يَجْرِمَنَّكُم شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلىٰ ألاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُواهُوَ أَقْرَبُ للتَّقوىٰ ، وَٱتَّقواْ ٱللَّه إن اللَّه خَبير بما تَعْمَلُونَ[٣٤] ﴾

والذين يقولون:يجب أن لا نتطاول على الأعلام ، ويتعصبون للأسماء واللافتات ، نجدهم يتطاولون على غيرهم بالحق وبالباطل . . . فلماذا أجازوا هذا لأنفسهم وحرموا الحق والدليل على غيرهم ؟ ! لقد وقع هؤلاء الحيارى فيمافرُّوا منه ، فنقضوا ما أصَّلوهُ ، واستحلوا ما كانوا حَرَّمُوهُ ،وحق لمن كان هذا حاله ، أن يطلق فيه القول الفظيع ، وَيُشَنَّع عليه بضروب التشنيع ، ومن أصدق من الله حديثاً:﴿ أَتَأمُرُونَ ٱلنَّاسَ بالبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُم وَأَنتُم تَتْلُونَ الكتبَ أَفَلاَ تَعْقِلونَ[٣٥] ﴾ . ورحم الله أبا الأسود الدؤلي القائل :

لاتنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

مؤلفات سعيد حوّى تحت المجهر

إن ما يكتبه المرء شاهد صدق على فكره ، فهو يخطه بيمينه في خلوته أو جلوته حيث تتجلى له نفسه دون أقنعة ، وإن حاول أن يركب مركب التعمية والتلبيس فإن لبس الشفوف لا يخفي عورة ، ولا يواري سوءة ، ورب كتب كاسية عارية .

بين يديّ عشرة كتب تحمل اسم(الأستاذ) سعيد حوى أصدرها في سلسلتين .

---

(٣٤) المائدة : ٨
(٣٥) البقرة : ٤٤

الأولى : «**الأصول الثلاثة**» وتشمل : الله جل جلاله ، الرسول ﷺ ، الإسلام .

الثانية : «**في البناء**» وتشمل : جند الله ثقافة وأخلاقا ، من أجل خطوة إلى الأمام ، تربيتنا الروحية ، جولات في الفقهين الكبير والأكبر ، المدخل إلى دعوة الإخوان المسلمين ، في آفاق التعاليم ، دروس في العمل الإسلامي .

أما سلسلة الأصول الثلاثة فقد أعرضت عنها إلا لماماً لأن دور الأستاذ سعيد حوى فيها الجمع والتبويب ، فقد جمعها من بطون كتب شتى مطبوعة ، قال : « هذه السلسلة أردت فيها بيان الأصول الثلاثة التي لا يكون المسلم مسلماً إلا بمعرفتها والإيمان بها ، وكنت فيها جامعاً منسقاً أكثر مني مبتدئاً مبدعاً »[٣٦]

وما سبب ذلك ؟ قال : « لقد بدأت جمع هذه السلسلة على أن تكون من مشروع عام يستوعب احتياجات العصر للحركة الإسلامية في جوانب شتى ، وكان المشروع ملاحظاً فيه أن يشارك فيه كل من يمكن أن يشارك وأن يستفاد من كل ما كتب ، وألّا يأخذ طابعاً شخصياً ، بل يأخذ طابع عمل مشترك ممن يملكون أهلية التوثيق ، وكان من المقرر أَلّا يخرج شيء إلى حيز النشر إلا بعد أن يمر على أصحاب إختصاصات شتى ليعطوا رأيهم ، وينقحوا ويصححوا ويزيدوا أو ينقصوا أو يقترحوا ، وبدأت العمل وحدث قصور الأول بسبب أن من رغب إليهم في الاشتراك في هذه السلسلة وغيرها من مكملات المشروع اعتذروا إلا القليل الذين أشير إلى جهودهم في بعض ما أصدرته أو جمعته ،

(٣٦) كتاب الله ، سعيد حوى ، دار الكتب العلمية ـ بيروت (ط الثالثة ص ٣)

فسرت في المشروع منفرداً على أمل أن يكمل المشروع من خلال مروره على من يلزم .

ولم أكن أفكر إطلاقاً أن يخرج شيء ما من المشروع كله منفصلاً عن هذه السلسلة باسمي الشخصي ، فعندما أنجزت السلسلة أنجزتها وأنا أضع في حسابي ما ذكرته آنفاً . ولذلك لم أراع أموراً كثيرة ، فمثلا لم أراع قضايا فنية في التأليف ، ولم أراع فيها أن تكون كاملة في جوانب متعددة على أساس أنه جهد سيكمل من جهات أخرى ، ولكن أحداً - تقريباً - ممن حاولت منهم وهم مرشحون لتكميل هذا الجهد لم يفعل لضيق الوقت وقلة الفراغ إلا ما كان من أخينا الشيخ وهبي سليمان الغاوجي حفظه الله[٣٧] »

إذا كان دور الأستاذ سعيد الجمع والتنسيق - بشهادته على نفسه والاعتراف أصدق شاهد ويغني عن التقصي والإحالة إلى المراجع التي اعتمدها وأهمل ذكرها - فقط ، فلماذا صدرت هذه السلسلة على أساس أنها من بنات أفكاره ، ومن نتاج يراعه وتخرج باسمه !؟ وإذا كانت قد صدرت في طبعتها الأولى وهو في السجن[٣٨] لا يجد إليها سبيلا ، فهلاّ أعاد الأمور التي فاتته إلى نصابها ، ونص الأقوال إلى أصحابها ، وفي وسعه الآن أن يفعل لو شاء .

والذي يشد الانتباه في هذه السلسلة أن سعيداً لم ينسب الأبحاث التي نقلها غير منقوصة إلى مصادرها ، وهو يفعل ذلك يقع في الخطأ مرتين ، أما الخطأ الأول فقد ذكرناه آنفاً وأما الخطأ الثاني فإنه يلزم نفسه أن يحمل أخطاء الآخرين الذين نقل أقوالهم واستشهد بآرائهم .

---

(٣٧) المصدر السابق ، ص ٦

(٣٨) المصدر نفسه ص ٥

إن سلفنا الصالح من أئمة الهدى كانوا إذا صنفوا أو جمعوا فإنهم يردون الأقوال إلى قائليها أو ناقليها لتبرأ عهدتهم منها إذا كانت خطأ ، وإن تعذر ذلك ولم يستطيعوا حولاً ولا قوة أشاروا إليها على أساس أنها ليست أقوالاً لهم ، وهذا أمر تقتضيه الأمانة العلمية ، إذا كنا لانتجشأ من غير شبع ، ولله در القائل :

ونص الحديث إلى أهله فإن الأمانة في نصه

والذي يملك الوقت لينقل ويجمع وينسق يملك الوقت لينص الحديث إلى أهله ، ويضع كل أمر في محِلِّه ، وهذا أمر تلقائي ناتج عن الجمع والنقل ، فعندما ينقل الكاتب نصاً يستدل به ، فإن توثيقه لا يحتاج إلى وقت مستقل بذاته عن عمليه النقل لأنه جزء من عملية النقل بل أصل في عملية النقل ، لأن الذي يرغب في نقل قول ليدعم رأيه ويقوى حجته يعرف من أين نقله إلا إذا أراد أن ينتحل فكر غيره ، ويحمد بما لم يفعل .

والشيخ سعيد حوى يثقل عليه أن ينبه مريديه إلى ما قررنا خشية أن يدب الشك إلى نفوسهم ، فتهتز صورته في أعينهم ، وينزعوا ثقتهم عن مؤلفاته التي أصبحت بضاعة رابحة في أيدي تجار الفكر الذين لاهمَّ لهم إلا الدرهم والدينار ، أما الأمانة العلمية والخلقية فحدِّث عن ضياعها ولا حرج ، فإن قيل - وقد قيل - إن الشيخ سعيد حوى نبه وقد نقلت قوله ، وعلمت عذره ، فالجواب :

إن إشارته عابرة لا تعيد الحقوق إلى أصحابها ، فالواجب أن ينسب الأقوال إلى أربابها ويشير إلى مظانها ، ناهيك أن الموضوع الذي نبه إليه يختلف اختلافاً كثيراً عن بيت القصيد الذي نريد ، فهو قد أشار إلى الأسباب التي

جعلته يسلك سبيل الجمع والتنسيق ، وكيف صدرت باسمه الشخصي دون رغبة منه ، والأمر الذي يعنينا بيانه هو توثيق النصوص والذي يعتبر أصل في التصنيف ، وليس قضية فنية في التأليف .

ولو عدت إلى كتاب « الله » وهو الكتاب الذي نـال قسطاً وافـراً من المراجعة والتصحيح ، وفي مقدمته زعم أن السيف عاد إلى نصـابه ، وحـلَّ الأسد منيع غابه ، قال : « وانتهى صدور الطبعة الأولى من السلسلة حوالي سنة ١٩٧٠ مـ ، وباستثناء البحث الأول عن الله عز وجل فإنه لم تقع السلسلة من التنقيح والتصحيح أو الخدمة الشاملة ما تحتاجه مع أنها طبعت أو صورت كثيراً[٣٩] » . فإنك تجد دليلا على ما قررنا وصدقاً لما أثبتنا على الرغم من ادعائه العريض « وكنت أتمنى في نفسي أن يبذل في كتـاب « الرسـول ﷺ »وكتاب « الإسلام » جهد يشبه ما بذل في كتاب « الله جل جلاله » في طبعته الثانية من مراجعة النقول في مواطنها إلى غير ذلك من التحقيقات ، ولكن أنى يتاح لي ذلك وأنا في سجني . وكنت فكرت كثيراً بعد أن أصبحت السلسلة تطبع باسمي أن أعيد كتابة بعض المواضيع التي نقلتها عن كتب أخرى بأسلوبي الشخصي وعلى طريقتي في العرض ، لكني وجدت أن ذلك سيكلفني وقتا وجهدا وقد لا أبلغ في حسن الأداء والعرض ما بلغـه من نقلت عنهم ، عدا عن كـون النقل كـان مقصودا في كثير من المواطن لأسباب متعددة قد أشير إلى بعضها بمناسباتها أثناء هذه الطبعة[٤٠] »

---

(٣٩) المصدر السابق نفسه (المقدمة ص ٥)
(٤٠) المصدر السابق نفسه ، ص ٧

هذا النص الذي نضعه بين يدي القارىء المنصف يجد فيه الحقائق التالية :

١ـ مراجعة النقول في مواطنها والتأكد منها .

٢ـ النقل كان حرفياً ولم يكن بالمعنى .

جاء هذا الكتاب في طبعته الثالثة حوالي(٢٠٠) صفحة من القطع الكبير ، اثنتا عشرة صفحة مقدمة ، ومائة وثمان وثمانون صفحة صلب الكتاب ، وعندما تستعرض الصفحات من (١) إلى (١١٨) والتي تشغل ثلثي الكتاب فإنك لا تجد فيها قولاً قد نسب إلى قائله أو مؤلفه على الرغم من الاعتراف الواضح أن هذه الأقوال والنقول تمت مراجعتها في مواطنها ، وأنها نقول كاملة ، ألا يدل هذا الخطأ الفاضح أن الرجل يتقمص شخصية غيره ، وينتحل فكر الآخرين ، ويريد أن يقطف الثمار الناضجة دون أن يرهق نفسه في الحرث والزرع ، وهذا ديدنه في جل ما كتب . . . فإلى الله المشتكى من أناس يبخسون الناس أشياءهم ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا .

أما الصفحات الباقية فإنها أبحاث كاملة من كتب مطبوعة ومتداولة ، إذن فما هو الجهد الذي بذله الشيخ سعيد في هذه السلسلة حتى يستحق أن تنسب إليه وتصدر باسمه ، اللهم طهر قلوبنا من الزيغ ، ونفوسنا من الهوى ، وأعمالنا من الرياء .

وبعد أن تبين للقارىء أمر هذه السلسلة ، وأنها تنسب إلى سعيد حوى تجارة ، فإننا سننظر إلى سعيد من خلال سلسلة « في البناء » ، لأنها عصارة أفكاره ، وخلاصة سعيه ، وقصارى جهده . قال : « وهذا الكتاب ـ دروس في العمل الإسلامي ـ مع إخوته في هذه السلسلة بنيته على فهمي لشريعة الله وعلى اجتهادات حسن البنا رحمه الله ، فالأساس فيه ذاك »[٤١]

(٤١) دروس في العمل الاسلامي ، سعيد حوى ، مكتبة الرسالة ـ عمان (طـ الاولى ص ٩)

وليس لديَّ حتى كتابة هذه الدراسة دليل على أنه عاد عن آرائـه أو بعضها ، وخاصه قد اعتمدت الطبعة الأخيرة لكل كتاب في هذه السلسلة .

وقد رأيت أموراً يركز عليها ، ويكررها ، ويدندن حولها ، ويجعلها محور بحثه ، ويجترّهـا في معظم أجـزاء هذه السلسلة ، وذلـك لسبب من سببين الراجح عندي الأول أما **أولهما** : فهو لم يستطع أن يهضم هذه الأمور ، فيجترّها ليسهل عليه هضمها ، ويشيد عليها بناء الحركة الإسلامية المعاصرة ، وأمـا **الثاني** : فلأنه لا يتقن غيرها . وهذه الأمور هي :

١ ـ التصوف .
٢ ـ التمذهب .
٣ ـ الإخوان المسلمون جماعة المسلمين .
٤ ـ حسن البنا : مجتهد مطلق ، ومجدد القرن العشرين

فكانت غرضي لأن الإشارة إلى كل إنحراف وقع فيه يحتاج إلى مجلدات بعضهـا فـوق بعض ، وكم أتمنى أن أفعـل إلا أن الـواجبـات أكـثر من الأوقات ، وليس كل أمر يتمناه الإنسان يدركه ، وما لا يدرك كُلُّه لا يترك جُلُّه .

ولما كان غرضنا تنبيه الغافل ، وتعليم الجاهل ، وتحذير الأمة ، فـإننا ندخل البيوت من أوسع أبوابها ، ولا نأتيها إلا من أبوابها ، لأننا نبغي الوصول إلى المقصود من أقصر السبل ليس قصوراً في الهمة ، وضعفاً في الجهد ، إلا أن سوء الأحوال ، وقلة الأموال ، وتقلب الناس تقف سداً في وجه الإنسان في كثير من الأحيان ، لذلك قررنا ألا نضيع وقتا ، ولا نتعب قارئاً ، والله من وراء القصد ، وله المنة والحمد .

مصادر التلقي عند سعيد حوّى

لا يختلف سعيد حوى عن غيره من الصوفيين في رجوعه إلى كتب التصوف في مقام الاستدلال .

فهو في كتبه يرجع إلى« إحياء علوم الدين » للغزالي ويرشد إلى مطالعته[٤٢] . ويعتبره من مظان علم الأخلاق الإسلامية[٤٣] . ومن أفضل ما حوته المكتبة الإسلامية ، وإنه لخسارة للبشرية ألّا تعض عليه بالنواجذ ، قال : «والإسلام جاء فيه تفصيل لكل شيء من جملة ذلك آفاق القلب والنفس ومعالجة أمور النفس والقلب وطرق العلاج وموازين الصحة والمرض وذلك شيء لا يمكن أن يكون في هذا العالم جواب صحيح عليه إلا في الإسلام ، ولا تفسير كامل إلا في الإسلام ، وأن الذين كتبوا في هذه الشؤون من أمثال حجة الإسلام الغزالي كتبوا في الحقيقة في أرقى الأمور وأعلاها على الإطلاق وإنه لخسارة للبشرية كلها ألا تقرأ ما كتب أمثال هؤلاء[٤٤] »

وينصح مريديه بمراجعته والاعتماد عليه إذا استعجم عليهم أمر في شؤون التصوف ، قال : « إن الذين تكلموا عن أركان المجاهدة ذكروا أركاناً أربعة هي : العزلة والصمت والسهر والجوع وسنتكلم بإجمال ليعود الأخ إذا أراد تفصيلا إلى الكتب الموسعة كالإحياء وغيره[٤٥] » ويلبس الغزالي حلة فضفاضة ويضعه في قمة سامقة لا يرقى إليها العلماء ، وهو يستدل بقول العقاد : « إن العالم كله شرقه وغربه لم يعرف قبله مفكراً[٤٦] » ، ويعتبره حجة

---

(٤٢) في آفاق التعاليم ، سعيد حوى ، مكتبة الرسالة الحديثة ـ عمان (ط الثانية ص ٧٧)
(٤٣) جند الله ثقافة وأخلاقا ، سعيد حوى ، دار الكتب العلمية ـ بيروت (ط الثالثة ص ١١٩)
(٤٤) تربيتنا الروحية ، سعيد حوى ، دار الكتب العربية ـ دمشق (ط الأولى ص ١١٣)
(٤٥) المصدر السابق ص ١٤٨
(٤٦) المصدر السابق ص ١٨٠ ، جند الله ثقافة وأخلاقاً . ص ١١٥

في كل ما يقول ، موثوقاً في كل ما ينقله « من قرأ سيرة الغزالي وما كتبه وهو إنسان موثوق رأى الكثير من هذا - أي الكشف - فإن فيما وقع للغزالي أو فيما نقله عن أمثاله حجة كافية في حق المنصف ، إذ أن الغزالي رجل صدق عند جماهير الأمة[٤٧] » .

هذا الكتاب الذي رفعه الشيخ سعيد مكاناً عليا ، ترى الانحراف عن جادة الحق والحجة البيضاء فيه جلياً .

١ - مليء بالأحاديث الموضوعة والضعيفة ، وقد قام الحافظ العراقي جزاه الله خيراً بتخريج أحاديثه في كتابه « المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار » وقد بلغت حمل بعير ، وهذا دليل على قصر باع الغزالي في السنة ، والتي لافقه ولا علم ولا فهم لدين الله إلا بها فهي مُبَيِّنَةٌ لما أجمل فيه وأشكل ، ومقيدة لما أطلق وعمم ، قال الباري جل جلاله : ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم**[٤٨] ﴾ ، وقد اعترف الغزالي في بعض كتبه ، وشهد على نفسه بأنه قليل الزاد في الحديث ، فقال : « وبضاعتي في الحديث مزجاة »[٤٩] فلا أدري كيف يقدم أمثاله على التصنيف وهم في هذه المنزلة ؟! وقد أدرك رحمه الله في أواخر حياته أهمية الحديث ، فشد المئزر ، وشمر عن ساعده ، ليتدارك ما فاته ، إلا أن المنية اخترمته قبل أن يحقق ما عزم عليه ، فمات وهو يشتغل في صحيح البخاري[٥٠] .

٢ - وعلماء المسلمين على مر العصور حباهم الله بسجية رائعة أنهم يقولون

---

(٤٧) تربيتنا الروحية ص ١٩٧
(٤٨) النحل :
(٤٩) قانون التأويل ، الغزالي ص ١٦ ٠ ونقض المنطق ، ابن تيمية ص ٥٢ .
(٥٠) موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ، ابن تيمية ، تحقيق محمد عبد الحميد ومحمد الفقي (ط القاهرة سنة ١٩٥١ ج ١ ص ٩٤) .

الحق ولا يخافون لومة لائم ، فقد فندوا الإحياء وقالوا فيه كلمة الحق تحذيراً للأمة ، ونصيحه لله ورسوله وكتابه فها هو معاصر الغزالي القاضي أبو بكر بن العربي يقول : « شيخنا أبو حامد دخل في بطون الفلاسفة ، ثم أراد أن يخرج منهم فما قدر[٥١] » . ويقول أبو عبد الرحمن بن الجوزي يصف كتاب الإحياء: « وجاء أبو حامد الغزالي فصنف لهم كتاب الإحياء على طريقة القوم وملأه بالأحاديث الباطلة وهو لا يعلم بطلانها وتكلم في علم المكاشفة وخرج عن قانون الفقه ، وقال المراد بالكوكب والشمس والقمر اللواتي رآهن إبراهيم صلوات الله عليه أنوار هي حجب الله عز وجل ولم يرد هذه المعروفات ، وهذا من جنس كلام الباطنية[٥٢]». وقال في كتابه المفصح بالأحوال . أن الصوفية في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد ثم يترقى الحال من مشاهدة الصورة إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق .

وكان السبب في تصنيف هؤلاء مثل هذه الأشياء قلة علمهم بالسنن والإسلام والآثار وإقبالهم على ما استحسنوه من طريقة القوم »[٥٣] . يضاف إلى ما ذكره ابن الجوزي أن الغزالي تبطن قوت القلوب لأبي طالب المكي والرعاية للحارث المحاسبي دون أن يشير إلى ذلك ، وهذا الاعتراف جاء على لسان شيخ الشيخ سعيد حوى عبد الفتاح أبو غده في تعليقه على رسالة الحارث المحاسبي نقلاً عن شيخه زاهد الكوثري .

أما قوت القلوب فقد وصفه ابن الجوزي بما فيه الكفاية حيث قال :

---

(٥١) المصدر السابق (١/ ٢)
(٥٢) ان أردت تفصيلاً فعليك بالمصدر السابق (١/ ١٩٦ ـ ١٩٨)
(٥٣) تلبيس إبليس ، ابن الجوزي ، دار الكتب العلمية ـ بيروت (ص ١٦٦)

« وصنف لهم أبو طالب المكي قوت القلوب فذكر فيه الأحاديث الباطلة ومالا يستند فيه إلى أصل من صلوات الأيام والليالي وغير ذلك من الموضوع وذكر فيه الاعتقاد الفاسد »[٥٤] وأما الرعاية فسنذكر عنها فيضاً من أقوال العلماء إذا جاء دورها وهو بعد بضع ورقات إن شاء الله .

وقد رد عليه شيخ الإسلام ابن تيمية بما فيه الكفاية للمستزيد والهداية للمسترشد ، وذلك في كتابيه «نقض المنطق» و « وموافقه صحيح المنقول لصريح المعقول » . فمن شاء التفصيل فعليه بهما فإنهما غاية في هذا الموضوع .

هذه شهادة العلماء في الغزالي وإحيائه ، فلماذا يصر المتصوفة على تضخيم شيوخهم وتلميعهم ؟ . . إن وراء الأكمة ما وراءها .

٣ ـ والإحياء مليء بانحرافات وزلات ، لا يقرها شرع ، ولا يقبلها عقل . ولا يجوز أن نمر عليها دون ذكر ، فمنها زعمه أن هناك علماً أخفاه الرسول ﷺ عن الناس وتوصل إليه المتصوفة وهو علم المكاشفة[٥٥] . يتعرف فيه الإنسان على حقائق الأمور وتنكشف له حجب الغيب ، ويطلع على خفايا الناس[٥٦] ويتم ذلك دون حاجة إلى طلب العلم الشرعي ، وإنما يحصل بالرياضات الروحية كالخلوة ، قال : « والخلوة لا تكون إلا في بيت مظلم فإن لم يكن له مكان مظلم فيلف رأسه بجيبه أو يتدثر بكساء أو إزار ، ففي هذه الحالة يسمع نداء الحق ، ويشاهد جلال الحضرة الربوبية »[٥٧]

٤ ـ وتكثر في الإحياء الدعوة إلى التربية الصوفيه ، ويضرب عليها

---

(٥٤) المصدر السابق ص ١٦٤

(٥٥) إحياء علوم الدين ، الغزالي ، مطبعة الإستقامة ـ القاهرة (١/١٩ ـ ٢٠)

(٥٦) المصدر السابق (٣/١٨ ـ ٢٦)

(٥٧) المصدر السابق (٣/٦٦)

الأمثال ، والتي قوامها إستسلام المريد الكامل للشيخ في كل ما يدع و يأتي ، وجَعْل نفسه كالميت بيد المغسِّل لا إرادة ولا اختيار(٥٨) . كما تقوم على الرضا بالأمر الواقع لانه ليس بالإمكان أفضل مما كان .

وحسبك دليلا سيرة الغزالي نفسه ـ وخاصه الفترة التي ألف فيها كتابه إحياء علوم الدين ـ نقل ابن العماد قول الاسنوي في طبقات الشافعية وهو يترجم للغزالي : « وأقبل على العبادة والسياحة فخرج إلى الحجاز سنة (٤٨٨) فحج ورجع إلى دمشق واستوطنها عشر سنين بمنارة دمشق ، وصنف كتباً يقال أن الإحياء منها ثم سار إلى القدس والاسكندرية ثم عاد إلى موطنه طوس »(٥٩) .

ونترك الكلام لمعاصره ابن العربي المالكي ليحدثنا عن هذه الفترة : « رأيت الغزالي في البرية وبيده عكازة وعليه مرقعة وعلى عاتقه ركوة ، وكنت رأيته في بغداد يحضر درسه أربعمائة عمامة من أكابر الناس وأفاضلهم يأخذون عنه العلم ، فدنوت منه فسلمت عليه وقلت له : « يا إمام أليس تدريس العلم ببغداد خيراً من هذا ؟ فنظر إلي شزراً وقال : « لما طلع بدر السعادة في فلك الارادة أو قال : «في سماء الإرادة » وجنحت شمس الوصول في مغارب الأصول :

تركت هوى ليلى وسعدى بمعزل وعدت إلى تصحيح أول منزل
ونادت بي الاشواق مهلاً فهذه منازل من تهوى ،رويدك فانزل
غزلت لهم غزلاً دقيقاً ، فلم أجد لغزلي نساجاً فكسرت مغزلي(٦٠)

---

(٥٨) المصدر السابق نفسه (١/ ٥٠ و ٥١ ، ٣/ ٧٥ و ٧٦)
(٥٩) شذرات الذهب (٤/ ١٣)
(٦٠) المصدر السابق . (٤/ ١٣)

وهذا يفسر خلو إحياء علوم الدين من موضوع الجهـاد ، بالـرغم أنه تعرض لشتى المواضيع ، في وقت كان الناس بأمس الحاجة إلى الجهاد والدعوة إليه . في فترة شهدت سقوط البلاد الإسلامية في يد الصليبيين التي قذفت بهم أوروبة ، هذه الفترة العصيبة في تاريخنا عاصرها الغزالي فما ذرفت عيناه دمعة واحدة ، ولا استنهض همة مسلم ، بل كان غارقاً في صوفياته يسطر في إحيائه ، ويقرر أن الجمادات تخاطب الأولياء .

وعبثاً يحاول الأستاذ سعيد حوى أن يبرأه من مواقفه السلبية فيخلط الأمور ، ويتجاوز عن حقائق تاريخية لا يخاصم فيها إلا مجادل في مناظرة ، فاجر في خصومة ، متساهل في الحق . يقول محاولاً تفسير خلو إحياء علوم الدين من مبحث الجهاد : « والذي يهاجم كبار الصوفية من خلال رؤيته لكتبهم في التصوف وعدم رؤيته بعض الأبحاث فيها فيكون ظالماً لأنه لم يعرف ما يدخل في هذا العلم وما لا يدخل فيه . لقد هاجم ناس الإمام الغزالي رحمه الله من ناحيتين* .

أولا : لأنه لم يضمن كتابه إحياء علوم الدين بحثاً عن الجهاد
ثانياً : لأنه عاصر الحروب الصليبية ولم يقاتل

وكلا الهجومين ظالم . إذ أن بحث الجهاد عادة يكتب في الفقه ، والغزالي ألف في الفقه كثيراً وكتبه في الفقه ملأى بأبحاث الجهاد وفي كتابه إحياء علوم الدين بحث نفيس عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وفيه كلام عن القتال في سبيل الله .

* هذا القول حيدة عن الحق فإن العلماء لم يهاجموا الغزالي لأنه لم يشارك في الجهاد فقط ، وإنما هاجموه لأنه مهد الطريق للأفكار الدخيلة التي زعزعت عقائد المسلمين والتي ذكرنا بعضها

والغزالي توفي سنة(٥٠٥ هـ) بينما توجهت أول حملة صليبية من أوروبا حوالي سنه ٤٨٧ هـ ولم تصل إلى الأرض المقدسة بل انتهت في الطريق فما يقال من إنه عاصر الحروب الصليبية غير صحيح على أن المشهور عن الغزالي انه أراد الالتحاق بأمير المسلمين وبطل الحروب الصليبية في الغرب يوسف بن تاشفين وفي الطريق بلغه خبر وفاته فرجع »[٦١].

دعنا نستخلص ما يقرره في هذا النص ليسهل عليك متابعة الرد ، وتصور القضية :

١ - يفسر خلو إحياء علوم الدين من مبحث الجهاد بأنه كتاب تصوف بينما مبحث الجهاد مَحِلّه كتب الفقه لذلك خلا الإحياء من مبحث الجهاد .

وهذه الحجة الواهية تتهاوى أمام مراجعة إحياء علوم الدين حيث يتضح أنه تعرض لشتى الموضوعات ، تصوف ، وفقه ، وعقيدة . . . وسرعان ما يتراجع سعيد عن هذه القضية خوفاً من أن يتهم بالجهل الفاضح لكتاب يدعي أنه يعرفه من ألفه إلى يائه فيقر أن إحياء علوم الدين شمل هذه الموضوعات « وفي كتاب إحياء علوم الدين بحث نفيس عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وفيه كلام عن القتال في سبيل الله » إن هذا التناقض الواضح يجب ألّا يقع فيه الشيخ بادىء ذي بدء لأنه كان قد صرح في كتابه جند الله ثقافة وأخلاقاً أن إحياء علوم الدين تعرض للتصوف ، والفقه ، والعقيده ، فقال : « كالغزالي في كتابه إحياء علوم الدين ، إذ جمع فيه العقائد والفقه والأخلاق ، وجرى في العقائد على مذهب الأشاعرة ، وفي الفقه على مذهب الشافعية ، وفي

(٦١) جولات في الفقهين ص(١٤٥ - ١٤٦)

الأخلاق على مذهب الجنيد والمحاسبي ، وفي الكتاب فصول من أروع ما كتبه المسلمون »[٦٢].

أم هي لحظة غفلة مست الأستاذ سعيد حوى فسطر هذا التناقض العجيب الغريب فمرة يصرح أن الإحياء كتاب تصوف لاشية فيه ، وتارة يقرر أنه حوى الفقه والعقيدة والتصوف ؟ وإنما ذكرنا ما ذكرنا لتعلم أن سعيداً حينما يكتب لا يكون في كامل قواه العقلية[٦٣] ، فقد تبين لذي حجر أنه ينقض حجته بنفسه ، ويشهد على نفسه بنفسه أنه يخبط خبط عشواء . . . أَرْبِع على نفسك أيها الشيخ ، ودع الكتابة بضع سنين .

٢ ـ أما زعمه أن الحملات الصليبية لم تدخل الأرض المقدسة والغزالي على قيد الحياة فلم أجد له أصلا من علم أو ذكرٍ في كتاب تاريخي موثوق ، وحسبي دليلاً تصريح أهل العلم بالتاريخ أن بيت المقدس سقط في يد الفرنج سنة **٤٩٢** هـ والغزالي توفي سنة **٥٠٥** هـ أي أنه عاصر الحروب الصليبية ثلاثة عشر عاماً ، وشهد المأساة التاريخية التي ذهب ضحيتها آلاف المسلمين يقول ابن كثير رحمه الله: « ثم دخلت سنة ثنتين وتسعين وأربعمائه ، وفيها أخذت الفرنج بيت المقدس .

لما كان ضحى يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان سنة ثنتين وتسعين وأربعمائة ، أخذت الفرنج لعنهم الله بيت المقدس شرفه الله ، وكانوا في ألف

---

(٦٢) جند لله ثقافة وأخلاقاً ص ١١٥

(٦٣) لا يذهبن الظن بك أيها القاري إلى إساءة الفهم ، وسوء القصد ، فإن الشيخ نفسه يعترف بأنه يكتب بعقلية المريض ، أنظر كتابه من أجل خطوة إلى الامام (ط الثانية ص ٢١٤)

ألف مقاتل ، وقتلوا وسطه أزيد من ستين ألف قتيل من المسلمين وجاسوا خلال الديار ، وتبروا ما علوا تتبيرا »[٦٤]

ألا تحترم أيها الشيخ عقل قرائك أم أنك اتخذت عليهم عهدا أن يسلموا لك دون بيِّنة إمتثالا لعقيدتكم الصوفية : إعتقد ولا تنتقد ، والتسليم أسلم ، والله بكلام أولياءه أعلم ، إن الحقائق التاريخية ليس فيها مجاملة ، لأنها لا تحتمل التأويل .

هذا هو الغزالي الذي نعته المتصوفة بـ (حجة الإسلام) زورا ، وإفكا ، وتدليسا سيرته سلالة من تناقض ، وفكره شوائب الفلسفة .

ولكيلا ندع شبهة للذين يظنون ظن السوء ، ويقيسون الأمور بأرائهم نختم رأينا في الغزالي بكلمة لشيخنا ابن تيمية رحمه الله:« علم أبو حامد بذكائه وصدق طلبه ، ما في طريق المتكلمين والمتفلسفة من الاضطراب ، وآتاه الله إيمانا مجملا ، كما أخبر به عن نفسه ، وصار يتشوف إلى تفصيل الجملة ، فيجد في كلام المشايخ والصوفية ما هو أقرب إلى الحق ، وأولى بالتحقيق من كلام الفلاسفة والمتكلمين ، لكن لم يبلغه من الميراث النبوي الذي عند خاصة الأمة ، وما وصل إليه السابقون من العلم والعبادة ، فصار يعتقد أن تفصيل الجملة يحصل بمجرد تلك الطريق ، لانسداد الطريقة السنية النبوية عنه ، بما كان عنده من قلة العلم بها ، ومن الشبهات تقلدها عن المتفلسفة والمتكلمين »[٦٥]

---

(٦٤) البداية والنهاية ، ابن كثير ، مكتبة المعارف ـ بيروت . ومكتبة النصر ـ الرياض (ط الأولى سنة ١٩٦٦ م ، ١٥٦/١٢) ، وانظر الكامل في التاريخ ، ابن الأثير الجزري ، دار الفكر (١٨٩/٨)

(٦٥) نقض المنطق ص ٥٦

٢ ـ الرعاية للحارث بن أسد المحاسبي رحمه الله تعالى

يوصي سعيد حوى بتداول كتاب الرعاية الذي أُتِيَ الغزالي من قبله لأنه تبطنه دون أن يشير إلى ذلك ، فكانت شؤما عليه كما كان كتابه شؤما على المسلمين ، وإعياء لعلوم الدين .

هذه الوصية جاءت تقليدا للشيخ حسن البنا رحمه الله تعالى الذي كان يثق بهذه الرسالة ، وليس نصيحة لله جل جلاله ورسوله ﷺ ولأئمة المسلمين وعامتهم عن دراسة ووعي ، وكذلك رسالة المسترشدين حيث يدرجها في مناهج مرحلة التكوين ، ويشيد بها وخاصة أنها اكتسبت متانة وجودة بفضل تعليقات أبي غدة* .

والحارث المحاسبي نهى الإمام أحمد رحمه الله تعالى عن مطالعة كتبه ، وعن مخالطته مما اضطره إلى الاختفاء بدار ببغداد ومات فيها . قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى : « وروينا عن أحمد بن حنبل أنه سمع كلام الحارث المحاسبي . فقال لصاحب له : لا أرى لك أن تجالسهم ، وعن سعيد بن عمرو البردعي . قال : شهدت أبا زرعة وسئل عن الحارث المحاسبي وكتبه ، فقال للسائل : إياك وهذه الكتب ، هذه كتب بدع وضلالات ، عليك بالأثر فإنك تجد فيه ما يغنيك عن هذه الكتب ، قيل له في هذه الكتب عبرة . قال :

* راجع « في آفاق التعاليم » ص ٧٥ ، « تربيتنا الروحية » ص ١٨ ، « جندا لله ثقافة واخلاقاً » ص ١١٦ .

من لم يكن له في كتاب الله عبرة فليس له في هذه الكتب عبرة* . بلغكم أن مالك بن أنس وسفيان الثوري ، والأوزاعي ، والأئمة المتقدمة ، صنفوا هذه الكتب في الخطرات والوساوس وهذه الأشياء هؤلاء قوم خالفوا أهل العلم يأتوننا مرة بالحارث المحاسبي ومرة بعبد الرحيم الدبيلي ومرة بحاتم الأصم ومرة بشقيق ، ثم قال ما أسرع الناس إلى البدع » [٦٦] .

ويعلل ابن رجب رحمه الله تعالى في جامع العلوم والحكم نهي الأئمة عن قراءة هذه الكتب الضالة « وإنما ذم أحمد وغيره المتكلمين على الوساوس والخطرات من الصوفية حيث كان كلامهم في ذلك لا يستند إلى دليل شرعي ،

(*) رحم الله سلفنا الصالح ، فقد كانوا ذوي أبصار ثاقبة ، وأقوال صائبة ، رضعوها ممن تلقوا الإسلام غضاً طرياً ، وهذه الكلمة من فقه هذا الامام ، وعلو كعبه في الاستنباط .

وقد نبتت ناشئة في هذه العصور سرت على مسرى قدامى المتصوفة ونسجت على منوالهم ، تذكر المسلمين بالقصص المختلقة ، وتضرب لهم الأمثال المكذوبة مدعية أنها ذات تأثير على القلوب فترققها وتحييها ، وزعموا أن من ذاق عرف ، ذلك قولهم بأفواههم .

إن هذه الأماني التي ينقصها الدليل سرعان ما تذوب وتتلاشى أمام قوة القرآن الذي يدفع الباطل فإذا هو زاهق ، فمن المعلوم ضرورة أن الدعوة إلى الإسلام واجبة ـ قدر الاستطاعة ـ ضمن قواعد فقه الدعوة المستنبط من الأدلة الشرعية لا من مجرد التجارب الشخصية ، والنزعات العقلية ، وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾(١٢٥) النحل.والحكمة هي السنة لقوله تعالى : (وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ)(٣٤) الأحزاب . ولا يجوز الترهيب والترغيب إلا بالقرآن ، وما صح من السنة المطهرة ، لقوله عز وجل : « فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ »(٤٥) ق . أما اختلاق القصص والمواعظ فلا تجدي نفعاً في تحقيق الإصلاح لأن النفس البشرية إن لم تستجب لكلام فاطرها فهل تستجيب لأكاذيب البشر قال تعالى : « فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِ يُؤْمِنُونَ » (٦) الجاثية ، وفي سورة أخرى « فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ »(٥٠) المرسلات ، إن الدعوة الإسلامية توقيفية ، لم يتركها الله هملاً مرتعاً لكل ناعق لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق .

هذه الجماعة يعتبرها الشيخ سعيد حوى قدمت للإسلام خدمات عالمية ، قال : «فمثلا جماعة الدعوة والتبليغ تخدم الإسلام خدمات عالمية ومحلية مثل هذه الجماعة يمكن أن نؤيدها ونقويها ونرسل لها قسماً كبير من عناصرنا ليعملوا معها كأفراد لا باسم الجماعة ، ويلتزمون أثناء العمل معها بكل ما يحرص القائمون عليها أن يلاحظ » دروس في العمل الإسلامي صفحة ٢٤ ، وفي كتابه جند الله ثقافة واخلاقاً يدعو إلى ملازمتها ودراسة طرقها وأساليبها . وذلك صفحة ١٥٨ . أي خدمات وأنت تعتبر كل تنظيم إسلامي خلا جماعة الإخوان باطل . . . وأي أعمال جليلة قدمتها هذه الجماعة التي أحيت التصوف فكراً وتطبيقاً . . . نعم إنها قدمت لسعيد خدمات عالمية وهي تحمل التصوف إلى أنحاء العالم لتجعله ديناً للمسلمين ، وتثبط همم العاملين ، وهذا الذي يريده سعيد حوى ، ويكرس جهوده لتحقيقه وهو يرى التصوف أفضل سبيل ، وأحسن صبغة .

(٦٦) تلبيس إبليس ، ص (١٦٦ ـ ١٦٧)

بل إلى مجرد رأي وذوق كما كان ينكر الكلام في مسائل الحلال والحرام بمجرد الرأي من غير دليل شرعي »*

٣ ـ كتب صوفية أخرى

ويرجع الأستاذ سعيد حوى إلى الكتب الصوفية التالية:« الرسالة القشيرية ، رسالة المسترشدين ، طبقات الصوفية ، المباحث الأصلية ، قواعد التصوف » وغيرها من الكتب المعتبرة عندهم ، ولا مجال للحديث عن هذه الكتب وما فيها من أباطيل ، وغرضنا أن نقول أن هذه الكتب يرجع إليها الأستاذ سعيد كسائر المتصوفة دون أي اختلاف بينه وبينهم .

٤ ـ مراقي الفلاح شرح متن الايضاح

يرشد الأستاذ سعيد المسلم إلى دراسة كتاب من كتب الفقه من أصحاب المذهب في المذهب من الأئمة الأربعة تجسيدا للقاعدة التي أرسوها وأصلوها : المسلم ملزم باتباع مذهب معين من المذاهب الأربعة .

وأذكر للقارىء ما جاء في بعض هذه الكتب ، والتي ذكرها في مرحلة التكوين في كتابه « في آفاق التعاليم » ، وهذا الكتاب عنوانه مراقي الفلاح شرح متن الايضاح للشيخ حسن الشرنبلالي ، وهو في الفقه الحنفي المذهب الذي ينتسب إليه الأستاذ سعيد حوى .

يقول المصنف مبينا أحق الناس بالإمامة : « فالأعلم أحق بالإمامة ثم الأقرأ ثم الأورع ثم الأسن ثم الأحسن خُلُقاً ثم خَلْقاً ثم الأحسن وجها ثم

---

* كان الحارث المحاسبي يورد كثيرا من الأحاديث الموضوعة لتأييد مذهبه في التصوف مما أدى إلى تجريحه وعدم قبول روايته بعدما كان ثقة ، قال الحافظ الذهبي في ميزان الاعتدال (١ / ٤٣٠ ـ ٤٣١) : « صدوق في نفسه ، وقد نقموا عليه بعض تصوفه وتصانيفه » وقد نقده كثير من العلماء كابن العربي المالكي في عارضة الاحوذي شرح الترمذي (٩ / ٢٠١)

الأشرف نسبا ثم الأحسن صوتا ثم الأنظف ثوبا فالأحسن زوجة فأكبرهم رأسا وأصغرهم عضوا فأكثرهم مالا فأكبرهم جاها » [٦٧] .

علق الأستاذ محمد عيد عباسي على هذه الفقرة في كتابه بدعة التعصب المذهبي صفحة (**١٩٣**) قائلا : « فتأمل يا أخي المسلم هذه الصفات التي عددها هذا الفقيه اللوذعي لتؤهل صاحبها لإمامة المصلين . وقف معي عند قوله : فالأحسن زوجة ، فالأكثر مالا ، فالأكبر رأسا ، فالأصغر عضوا . وقل لي بربك : أليس جَعْل هذه الصفات للمرشح للإمامة أمراً سخيفا مضحكا ، ثم هو في الوقت نفسه أمر مخز ومخجل ؟

أوليس من الكسب الكبير للكفار والمستشرقين أن يطلعوا على هذا الكلام فيجعلوا الفقه الإسلامي ضُحْكَة وهُزَأة ومصدر تهكم وسخرية ؟ ويستمر قائلا :

ولنفرض أن قوما قاموا إلى الصلاة وقد أخذوا بما قرر هذا الفقيه وأمثاله . ترى هل يتطوع أحدهم ليذكر لنا كيف يتصور تطبيقه . ترى كيف يختار المصلون أحسنهم زوجة ؟ هل يقترح هذا العلامة بأن يحضروا زوجاتهم ، ثم يختاروا لجنة تحكيم ، كما يفعل الفساق في انتخاب ملكات الجمال ، فتختار هذه اللجنة أجملهن وأحسنهن ، ثم يقدموا زوجها للإمامة ؟

وانتقل معي - قارئي العزيز - إلى هذه الصفة الغريبة العجيبة في هذا الوصف الأخير المخزي (فالأصغر عضوا - ذكرا -) ، الذي يضرب به وجه صاحبه ويعزر عليه ، ويجعل عبرة للناس ، لافترائه على دين الله وتشويهه الشريعة السمحاء ؟

---

(٦٧) مراقي الفلاح ص ١٢٠

أليس يدل هذا على درجة بالغة في انحطاط التفكير ، وسماجة الطبع ، وفساد الذوق ، وقلة الأدب ؟ ويقول :

وهب أن قوما قاموا إلى الصلاة وتساووا في الصفات السابقة كما يتخيل هذا الفقيه ، وأرادوا تطبيق الوصف الأخير . فكيف ينفذون ذلك ؟ إنني أترك للقارىء الكريم أن يتخيل الطريقة التي يراها هؤلاء الفقهاء لتنفيذه، والحقيقة أنني أكاد أذوب خجلا ، وأنا أسطر هذا الكلام ناقدا وقادحا ، ترى كيف كتبه هؤلاء مقرراً مثبتا ؟

ولعله يحسن أن نبين للقارىء ما نراه حكم الدين الحق في مسألة الإمامة في الصلاة ليرى البون الشاسع بين فقه الكتاب والسنة ، وبين فقه المذهبية المتعصبة . قال رسول الله ﷺ : (يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله ، فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة ، فإن كانوا في السنة سواء فأقدمهم هجرة ، فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سنا) *

واعتقادنا أن هذا الحديث وحده يكفي ليكون الفصل في هذا الموضوع ولا حاجة إلى هذه الحذلقات ، التي أوردها من أورد من أشباه الفقهاء الذين لم يشموا رائحة العلم الصحيح ، ولم يتذوقوا فقه السنة الرفيع . وما أصدق ما قال قائلنا :

إذا ذو الرأي خاصم عن قياس   وجاء ببدعة منه سخيفة
أتيناهم بقول الله فيها   وآثار مبرزة شريفة » أهـ

---

* رواه مسلم عن أبي مسعود البدري/بدعة التعصب المذهبي ص ١٩٥ قلت : وفي رواية للإمام مسلم (سلماً) أي إسلاماً بدل (سناً) .

قلت : بالإضافة إلى ما ذكره الأخ محمد عيد في كتابه القيم فإن هـذا النص مخالف للسنة ، فقد استهل الشرنبلالي قوله « فالأعلم أحق بالإمامة ثم الأقرأ » بينما الحديث نص قاطع في تقديم أقرأ القوم للإمامة ، عجبا لأمر المقلدة كله تناقض . ومخالفة للشرع ، وخوض في الافتراضات والأغلوطات والمعضلات التي لم تقع ، ونادرا ما تقع ، وقد لا تقع . يقول الشيخ سعيد مبينا مهمة الفقيه : « إنه من العجيب أن تصبح الميزات مثالب . إن الفقيه مهمته الجواب على كل مسألة وقعت أو يمكن أن تقع سواء كانت حادثة شاذة أم عادية والإنسان عندما يقع في ورطة يفتح كتاب فقه ليجد جوابها فإذا لم يجد جوابها يعتبر ذلك قصورا » (٦٨) هذا البيان لم يترك في القلب شكا أن الأستاذ سعيد حوى يستحسن الاشتغال بالمسائل الآرائية بل يجعلها من مهمات الفقيه وميزاته .

ولو عدنا إلى الكتاب والسنة واسْتَنْطَقْناها ، وإلى حياة السلف واستوعبناها ، لوجدنا نهيا صريحا عن السؤال عما لم يقع ، والآثار الصحيحة الدالة على النهي كثيرة ، منها المرفوع المتفق عليه (إن النبي ﷺ كره المسائل وعابها) ومنها الموقوف عن عمر رضي الله عنه : « أحرج بالله على كل إمرىء سأل عن شيء لم يكن ، فإن الله قد بين ما هو كائن » (٦٩) ومنها المقطوع قال الشعبي رحمه الله : « والله لقد بَغَضَ هؤلاء القوم إليّ المسجد ، حتى لهو أبغض إليّ من كناسة داري ، قيل : من هم يا أبا عمرو ؟ قال : ألارائيون » (٧٠) .

لقد عاب السلف رحمهم الله تعالى هذه المسائل المزعومة ، والخيالات

---

(٦٨) جولات في الفقهين ص ١٣٤
(٦٩ ، ٧٠) جامع بيان العلم وفضله ابن عبد البر طبعة المكتبة السلفية ـ المدينة المنورة (٢/ ٧٤)

الغريبة الموهومة ، لأنها شطحات في خيال عقيم ، وثمار لعقول قاصرة ، أدى بها الفراغ ، وضعف الوعي الإسلامي الصحيح ، الذي كان عليه السلف الصالح ، إلى التنطع والتكلف ، وقد نهى الله تعالى عنهما ، فأمر رسوله ﷺ أن يصدع بما يؤمر : ﴿ قُلْ مَا أَسْئَلُكُم عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَاْ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [٧١] .

ولا يعكرن عليك التعصب صفو الحقيقة فها هو مراقي الفلاح الذي لا يزال حديثنا عنه مستمرا ، يوجد بين دفتيه هذه المقولة الحمقاء : « ووجود حيوان ميت فيها (في البركة والماء) ينجسها من يوم وليلة ومنتفخ من ثلاثة أيام ولياليهن إن لم يعلم وقت وقوعه . . . فإن عجن بمائها يلقى للكلاب أو يعلف به المواشي **وقال بعضهم يباع لشافعي** » [٧٢] .

إن مناقشة هذا النص قد تطول ، لذلك سنضرب عنه صفحا إلا الجملة الأخيرة .

أليس ذلك تكريس للعداوة والبغضاء بين المذهبين الحنفي والشافعي ، وافتعال للمشاحنات التي نحن بحاجة ماسة إلى الابتعاد عنها ، وإحياء لنار الحرب التي أوقدها متعصبو الحنفية وأطفأها الله تعالى . . ألا يستحيي قائل هذا الكلام أن يقارن الشافعي بالكلاب والمواشي . . إن تعجب فعجب اختيار سعيد حوى لهذه الكتب التي تحوي هذه الأقوال المفرقة للجمع وخاصة في أدق مراحل خط سير الحركة الإسلامية (مرحلة التكوين) .

لماذا لم يستحسن ويقرر رأي أستاذه البنا رحمه الله في كتاب « فقه السنة » [٧٣] ؟ إن كان صادقا في ادعائه أنه يتبع سنن البنا في قواعد العمل

(٧١) سورة ص : ٨٦
(٧٢) مراقي الفلاح ، ص (٢١ و ٢٢)
(٧٣) أنظر فقه السنة ـ لسيد سابق حيث أثبت تقريظ البنا في المقدمة .

الإسلامي . . أم أنه مجرد إدعاء . . نسوق ذلك ليعلم تلاميذ حسن البنا مدى الفصام النكد بين القول والتطبيق .

وقد يقال:إنك ألزمت الأستاذ سعيد حَوّى بما لا يلزم ، وقد صرح بأن ما في هذه الكتب لا يلزمه ولا يتحمل مسؤوليته ، وأن النصوص التي اختارها لا انتقاد عليها ، فقال : « ولا يصح لإنسان أن يلزمني بكل كلمة قالها مؤلف في كتاب على أن كلمته تمثل رأيي بمجرد أني نقلت عبارة أو سريت على مسرى صاحب الكتاب » (٧٤) .

هذه الكتب التي تحدثنا عنها اتخذها سعيد شرعةً ومنهاجاً حيث أوردها ضمن منهج مرحلة التكوين لجماعة الإخوان المسلمين (٧٥) ، وينصح بمطالعتها ، والرجوع اليها « ولا يصعب على القارىء أن يمد يده إلى مثل الرسالة القشيرية لأبي اسحق القشيري ، أو لكتاب قواعد التصوف للشيخ أحمد الرزوق ليجد جواباً على أي موضوع أهملته ، أو أهملت التوسع فيه ، وكم أتمنى لو طبع هذان الكتابان مع التعليق المختصر عليهما من فقيه صوفي » (٧٦) .

ناهيك أنه يعتبر ما ألفه في هذه المواضيع مفاتيح لكتب التصوف وسلماً للقراءة فيها وخاصة كتب الغزالي والمحاسبي رحمهما الله ، قال : « كما إنني أريد من هذه الرسالة/جولات في الفقهين/ أن أضع قدم المسلم على الطريق للدراسات الصوفية بحيث يقرأ كتب التصوف وبيده ميزان أو مصباح على ضوئه يسير ، وبه يزين ما يقرأ ، ومن ثم فأنا لا أعتبر هذا الكتاب إلا سلماً للقراءة في كتب التصوف وخاصة كتب/المحاسبي والغزالي رحمهما الله وخاصة الرسالة

---

(٧٤) تربيتنا الروحية ص ١٩
(٧٥) في آفاق التعاليم ص ( )٧٥ ـ ٨٠)
(٧٦) تربيتنا الروحية ص ٢٥

القشيرية للعالم الفارس المجاهد أبي القاسم القشيري ولا أنس أن أذكر برسالة المسترشدين للمحاسبي وتعليقات الشيخ عبد الفتاح أبي غدة حفظه الله عليها » تربيتنا الروحية ص ١٨ .

سعيد حوى والتصوف

أولا : أصول لا بد من معرفتها

١ ـ عند استقراء مؤلفات وأقوال علماء التصوف الذين رفعوا لواءه ، وأسسوا قواعده ، وأحكموا بناءه ، وأجمع الصوفيون عبر العصور على إمامتهم ، نجدهم جعلوا التصوف علماً على عقائد ضالة ، وأساليب منحرفة ، تفرد بها طائفة من الناس دون عامة المسلمين ، يسمون أنفسهم « أهل الله » و « العارفين بالله » و « أهل الكشف » ، وقد تصدى لهم أئمة المسلمين وفندوا مزاعمهم ، وسددوا سهامهم إلى هذه العقائد التي لم يقم على صحتها دليل في الشرع ولا في العقل ، فأصابوا منها مقتلا .

٢ ـ لمّا رأى الصوفيون اندحارهم في هذه الجولات ، وأنهم كساع إلى الهيجاء دون سلاح ، خُيِّل إليهم أنه لا يزال في قوس التصوف منزع ، فلجأوا إلى أسلوب التعمية والتدليس والتلبيس ، وذر الرماد في العيون ، وسلكوا سبيل الحيل لعلهم يخدعون الدهماء ، فقالوا : إن هذه الأقوال التي ذكرتموها مدسوسة علينا .

ولو سلمنا بصحة قولهم ، فلماذا لا تزال هذه المؤلفات تدرس في زواياهم وتكاياهم ؟ ولها مكانة خاصة في قلب كل صوفي ، وهي مصادرهم في تلقي التصوف .

أتدرون أن قولكم إدانة صريحة لهذه المؤلفات ، وتبرؤ واضح منها ؟ وأنكم عندما ترجعون إليها تقعون في تناقضات بعضها فوق بعض ، وإلا فهو الخداع لعدم قدرتكم على الدفاع عن هذه العقائد التي تخالف الإسلام شكلاً ومضموناً ، وتنقض عرى الدين عروة عروة ، وهذه هي الحقيقة التي يحجبونها ، وإليك الدليل على ما قررنا .

أ - بعض المتصوفة متهم عند علماء الحديث بوضع الحكايات للصوفية كالسلمي صاحب طبقات الصوفية ، إلا أن الصوفيين يعتبرون هذا الكتاب من أجود كتبهم ، وأوثق مصادرهم ، مما يدل على استحسانهم لما جاء فيه ولو كان كذباً عليهم لأنه يتفق وأصولهم التي بها يدينون ، وعليها يتكؤون .

ب - إدانة العلماء القدامى الذين عاصروا هذه العقائد لهذه الأباطيل وتفنيدها .

جـ - حكم العلماء على بعض الصوفيين بالقتل لأنهم رأوا منهم ما يوجب ذلك كالحلاج المقتول صلباً على جسر بغداد سنة ٣٠٩ هـ ، والسهروردي المقتول بأمر صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٧ هـ ، وما محنة غلام الخليل عن الباحث ببعيد « وهي المحنة التي أتهم فيها نحو سبعين صوفيا ، من بينهم الجنيد شيخ الطائفة ببغداد ، وحوكموا وحكم عليهم بالإعدام ثم أفرج عنهم » (٧٧) .

وحكم علماء المسلمين على هؤلاء بالقتل لم يكن عبثا ، ولو كانت هذه الكتب والأقوال مدسوسة عليهم لدرؤوا الحد عنهم، ولقد كان هؤلاء الأئمة

---

(٧٧) أنظر التصوف بين الحق والخلق ، محمد فهر شقفه ، ط الثانية ص ٤٥

الذين أباحوا دم الحلاج قمة في التثبت والتروي نحسبهم كذلك ولا نزكي على الله أحداً ، قال السيوطي : « وفيها ـ أي في سنة ٣٠١ هـ ـ أدخل الحسين الحلاج مشهودا على جمل إلى بغداد فصلب حياً ونودي عليه : « هذا أحد دعاة القرامطة فاعرفوه ثم حبس إلى أن قتل سنة تسع » [٧٨] ويقول السيوطي رحمه الله تعالى : « وفي سنة تسع أي بعد الثلاثمائة قتل الحلاج بإفتاء القاضي أبي عمرو والفقهاء والعلماء أنه حلال الدم في أحواله السيئة أخبار أفردها الناس بالتصنيف » [٧٩] .

لقد لبث الحلاج في السجن بضع سنين ، وهذه المدة تدل على أن هؤلاء العلماء أيقنوا أن ما نقل عن الحلاج حقيقة . ولو كان مدسوسا عليه لتبرأ منه على رؤوس الأشهاد . . لكنه يدل على إصراره على عقيدته الباطنية المنحرفة .

٣ ـ وقال بعض الصوفية إن أئمة التصوف حافظوا على احترامهم لعلماء الشريعة ، وأنكروا على من جعل الشريعة مرتبة للعوام حتى أنهم اتهموا القائلين بذلك بالزندقة ، وأعلنوا أن تصوفهم مقيد بالكتاب والسنة ، فها هو أبو سليمان الداراني يقول : « ربما تقع في نفسي النكتة من نكت القوم أياماً فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين الكتاب والسنة » ، وهذا أبو يزيد البسطامي يقول : « من ترك قراءة القرآن والتقشف ولزوم الجماعة وحضور الجنائز وعيادة المرضى وادعى بهذا الشأن فهو مبتدع » ، والجنيد ـ سيد الطائفة ـ يقول : « مذهبنا هذا مقيد بالكتاب والسنة » ، وقال : « علمنا منوط بالكتاب والسنة من لم يحفظ الكتاب ويكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدى به » [٨٠]

---

(٧٨) تاريخ الخلفاء ، السيوطي تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، الطبعة الأولى ، مطبعة السعادة (ص ٣٨٠)

(٧٩) المصدر السابق (ص٣٨٢) ولقد كان عدو الله الحلاج مصراً على بدعته قال في كتابه الطواسين ص ٥٢ : « وإن قتلت أو صلبت ، أو قطعت يداي ورجلاي ، ما رجعت عن دعواي »

(٨٠) تجد طائفة من أقوالهم في الرسالة القشيرية

إن هذه الأقوال تعارضها أقوالهم الأخرى المخالفة للكتاب والسنة ، قال الجنيد : « أحب للمبتدىء ألا يشغل قلبه بهذه الثلاث ، وإلا تغير حاله : التكسب ، وطلب الحديث ، والتزوج ، وأحب للصوفي ألا يقرأ ولا يكتب ، لانه أجمع لهمه »[٨١] . وقال أبو سليمان الداراني : « إذا طلب الرجل الحديث ، أو سافر في طلب المعاش ، أو تزوج ، فقد ركن الى الدنيا »[٨٢] . وقال أبو يزيد : « أخذتم علمكم ميتاً عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت ، يقول أمثالنا : حدثني قلبي عن ربي ، وأنتم تقولون : حدثني فلان وأين هو ؟ قالوا : مات عن فلان وأين هو ؟ قالوا : مات »[٨٣]

رُبَّ قائل يقول : إن هؤلاء القوم كانوا حيارى في بداية أمرهم ثم هدوا إلى صراط مستقيم .

إن هذا القول لا يسنده دليل من واقع المتصوفة ، بل هي تناقضات متعمدة ومفتعلة ، لأنها تحايل واستدراج للبسطاء كي يستسلموا لآراء المتصوفة ظنا أنها مقيدة بالكتاب والسنة ، ومحررة على ضوء الإسلام .

إن الصوفيين في القديم والحديث لجأوا الى إصدار الأقوال المتضاربة ، وهي ليست أكثر من استهلاك محلي ، وتخطيط مرحلي ، فتبصرهم يقولون شيئا ، ويقصدون شيئا آخر ، وهذا الأسلوب يتمشى مع عقيدتهم التي تؤمن بالتقية .

إن التصوف يشتمل على أساس التقية دون أن يعلن ذلك على الملأ ، وذلك حين بدأ يتخذ سبيله إلى عقائد دونها قطع الرقاب ، فقد كان الجنيد

(٨١) قوت القلوب (٣/١٣٥)
(٨٢) الفتوحات المكية لابن عربي (١/٣٧)
(٨٣) المصدر السابق (١/٣٦٥)

عاملا بالتقية حتى كان « لا يتكلم قط في علم التوحيد إلا في قعر بيته ، وبعد أن يغلق داره ويأخذ مفاتيحها تحت وركه ، ويقول : أتحبون أن يكذب الناس أولياء الله وخاصته ويرموهم بالكفر والزندقة » [٨٤] وقد بين الشعراني هذا المذهب قائلا : « وإنه كان يستتر بالفقه إلى أن مات » [٨٥] .

وأما اتهامهم للقائلين بالعقائد الضالة بأنهم زنادقة ، فليس كما يتوهم بعض المسلمين أنه تبرؤ منها ومن أصحابها بل هو مدح لهم ، واعتزاز بمواقفهم ، وهو تطبيق واقعي للتقية ، فهذا الجنيد يحدثنا عن ذلك : « لا يبلغ الرجل عندنا مبلغ الرجال حتى يشهد فيه ألف صديق من علماء الرسوم بانه زنديق ، لأن أحوالهم وراء النقل والعقل » [٨٦] .

وهذه الإدانة إن لم تكن من باب التقية ، فالمتصوفة لا يفرقون بين الصديق والزنديق ، لأنهم يعتقدون أن المطيع والعاصي سواء أمام الله عز وجل لإطاعة كل منهم لله في صفة من صفاته ، واسم من أسمائه ، فالأول أطاعه في اسم الهادي ، والثاني أطاعه في اسم المضل ، فكلاهما مطيع ومقرب ، ومثاب على طاعته [٨٧] .

قال أحدهم إن هذه الأقوال قد لا نفهمها ، لان الصوفيين لهم اصطلاحاتهم الخاصة بهم فينبغي تأويلها في صالحهم لئلا نكفر قوما بجهالة وننسب أولياء الله إلى الضلالة .

---

(٨٤) الطبقات الكبرى للشعراني طبعة صبيح (١/ ١٠)

(٨٥) المصدر السابق.وقد نقل عنه الكلاباذي صاحب الموسوعة الصوفية « التعرف على مذهب التصوف » قوله للشبلي « نحن حبرنا هذا العلم تحبيراً ، ثم خبأناه في السراديب فجئت أنت فأظهرته على رؤوس الملأ » انظر صفحة ١٤٥ .

(٨٦) الأنوار القدسية على هامش الطبقات الكبرى ، الشعراني (١/ ٢٢)

(٨٧) هذه العقيدة الضالة تجدها في كتابين هما (١) الإنسان الكامل لعبد الكريم الجيلي (٢) الفتح الرباني والفيض الرحماني لعبد الغني النابلسي .

إن فتح باب التأويل معناه نسف الشريعة ، لانها ستصبح ألعـوبة في أيدي الملاحدة المبطلين ، ويصبح الكافر مسلما ، لأننا على هذا المنوال نستطيع تأويل الكفر إلى إسلام ، وتحويل الشرك إلى إيمان ، فلربما يقول قائل : عيسى إله فإن أنكرت قوله قال لك : على رسلك ، إنما قصدت رب عيسى إله . . وهكذا دواليك .

والمسلم مأمور أن يحكم على الظاهر ، وقد أغلق العلماء باب التأويـل حفظا للشريعة ، وسدا للذريعة ، قال الإمام زين الدين العـراقي رحمه الله تعالى : « ولا يقبل ممن اجترأ على مثل هذه المقالات القبيحة أن يقول أردت بكلامي هذا خلاف ظاهره ولا نؤول له كلامه ولا كرامة » [٨٨] .
وقال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في أول إحياء علوم الدين في كتاب العلم : « إن الألفاظ إذا صرفت عن ظواهرها دون اعتصام بنقل عن صاحب الشرع . . اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ » أ هـ مختصرا .

٤ ـ وقسم قـال إن التصوف علم يـرتبط بقضـايـا القلب ، وزكـاة النفس ، فهو علم استنباط قواعد السلوك الإسـلامي من مصدريـه الكتاب والسنـة ، وتقنين الأخـلاق الفاضلة ، فهـو بمعنى التقوى ، ولا مشـاحـة في الاصطلاح ، ولا مبرر للإنكار أصلا ، اذ ما مبرر الإنكار على اسم مباح أُطلق على علوم من العلوم حتى أصبح علما عليه .

إن هذا الإدعاء تقول على الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، كيف وهو ينقصه الدليل ، وينقضه البرهان ؟

---

(٨٨) مصرع التصوف ص ٦٦

أ ـ لم يعهد في اللغة العربية كلمة التصوف بمعنى التقوى ، وإنما المعروف التزكية والزكاء أي النماء والطهر ، وهو مأخوذ من قول العرب « زكا الزرع إذا نما وأينع » ، لذلك اضطرد مجيء هذه الكلمة في كتاب الله وسنة رسوله للدلالة على تطهير الأنفس ، وتطييبها ، وتنقيتها من قبائحها .

إذن فكلمة التصوف إن أطلقت واستعملت بمعنى التقوى والتزكية مردودة على أصحابها ، لأن هذا الاشتقاق لا يستقيم لغويا ، والكلمة دخيلة على لغة العرب بهذا المفهوم ، ويؤكد ما ذهبت اليه اضطراب المتصوفة أنفسهم في تفسير هذا الاصطلاح . يقول الكلاباذي : « لم سميت الصوفية صوفية ؟ قال طائفة : إنما سميت صوفية لصفاء أسرارها ، وقال بشر بن الحارث : الصوفي من صفا قلبه لله . وقال بعضهم : الصوفي من صفت لله معاملته ، فصفت له من الله عز وجل كرامته ، وقال قوم : إنما سموا صوفية لأنهم في الصف الأول بين يدي الله عز وجل ، بارتفاع هممهم إليه ، وإقبالهم بقلبهم عليه . ووقوفهم بسرائرهم بين يديه ، وقال قوم : إنما سُمّوا صوفية لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصُفَّة الذين كانوا على عهد رسول ﷺ ، وقال قوم : إنما سموا صوفية للبسهم الصوف » (٨٩) ويحاول أن يجهد نفسه في الجمع والتوفيق بين هذه الأقوال ، وفي النهاية يظهر الله الحق على لسان هذا الصوفي فيقول : « وإن جعل مأخذه من الصوف ، استقام اللفظ ، وصحت العبارة من حيث اللغة » (٩٠) . ويقول ابن الجوزي : « إن نسبة الصوفي إلى أهل الصفة غلط لأنه لو كان كذلك لقيل صُفِيّ » (٩١) .

---

(٨٩) التعرف على مذهب التصوف ص ٢١
(٩٠) المصدر السابق ص ٢٦
(٩١) تلبيس إبليس ص ١٦٣

إن اعتراف المتصوفة وغيرهم بأن هذا اللفظ لا يستقيم عموده إلا إذا كان مشتقا من الصوف ، وهو الحق واقعا فإن الصوفيين اشتهروا بلباس الصوف للتدليل على زهدهم وتقشفهم ، والصحيح اشتقاقا فالصوفية نسبة إلى الصوف وهذا ما استحسنه السهروردي (٩٢) وهو من أئمتهم ، وأجازه ابن الجوزي حيث قال : « وقال اخرون ، بل هو منسوب إلى الصوف ، وهذا يحتمل » (٩٣) .

ب - ولو فرضنا جدلا صحة القول الآنف واستبدلنا كلمة التقوى والتزكية بكلمة التصوف ، فإن هذا الالتفات ترك للمصطلحات القرآنية ، واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير ، وعليه فإن إصرارنا على لفظ التقوى والتزكية تمسك بحرفية النص ، ووقوف عند حده ، وإلا انقلب الأمر إلى ضده .

ج - إن تزكية النفس ، وتنقيتها من قبائحها ، وتصفيتها من أدرانها ، والسمو بها إلى مكارم الأخلاق وصالحها إحدى المهمات التي من أجلها بعث الرسول ﷺ على فترة من الرسل ، قال الله تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾ (٩٤) .

والذي شرع الغاية لم ينس الوسيلة ، فقد شرع الله الوسائل ، وبينها رسوله صلى الله عيه وسلم للوصول إلى هذه الغاية ، وعندما نستعرض شعائر

---

(٩٢) عوارف المعارف على هامش الإحياء (١/ ٢٩٥) .

(٩٣) تلبيس إبليس (ص ١٦٣) . وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١١/ ٦ - ٧) ، والعلامة ابن خلدون في مقدمته (ص ٤٦٧) حيث قال : « والأظهر إن قيل بالاشتقاق أنه من الصوف وهم في الغالب مختصّون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة النّاس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصُوف »

(٩٤) الجمعة : ٢

الإسلام كلها، ونستقرِؤها جميعها ، ونربطها بهذه الغاية نتبين أنه ليس للتزكية أعمال خاصة من مجموع شرائع الإسلام ، بل إن الإسلام أعمال غايتها ونهايتها التزكية .

التوحيد تزكية ، لأن الإعتراف بالحق أس الفضائل ، وأم الأخلاق ، فرأس الحكمة معرفة الله وعبادته ، وليس هناك حق أكبر من الله ، ولا أظهر منه عند كل ذي مسكة عقل ، ولهذا كان الشرك بالله عز وجل نجس قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ (٩٥) .

والصلاة تزكية ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾(٩٦) .

والزكاة تزكية ، قال تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوالِهِم صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِم إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٩٧)

والصوم تزكية ، قال تعالى:﴿ يٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٩٨) .

والحج تزكية ، قال تعالى:﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومٰت فَمَنْ فَرَضَ فيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمهُ ٱللهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ ٱلتَّقْوىٰ وَٱتَقُونِ يٰأُوْلِى الْأَلْبٰبِ ﴾ (٩٩) .

والأخلاق تزكية ، وجماع أمرها الصدق ، قال تعالى:﴿ يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

---

(٩٥) التوبة : ٢٨
(٩٦) العنكبوت : ٤٥
(٩٧) التوبة : ١٠٣
(٩٨) البقرة : ١٨٣
(٩٩) البقرة : ١٩٧

ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (١٠٠) ، وأقوى دليل على توفرها في النفس البشرية العدل . قال عز وجل : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١٠١) .

والحكم بما أنزل الله تزكية ، قال الله جل جلاله : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١٠٢) .

والتقوى هي غاية العبادة ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١٠٣) .

إذن فالطريق المؤدي إلى التقوى هي العبادة ، والعبادات توقيفية لا تثبت إلا بدليل شرعي . وقد أجمل سبحانه ذلك في كتابه ولم يفصله كله ، وإنما جعل تفصيله وبيانه للوحي الثاني وهو سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأتمها عليه الصلاة السلام أتم بيان وفصلها أحسن تفصيل ، فتركنا عليها بيضاء نقية ، ليلها كنهارها .

قال الله مبينا أن اتباع سبيله يؤدي إلى التقوى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١٠٤) . وفي تبيان قوله تعالى حديث صحيح يرويه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : (خط لنا رسول الله ﷺ خطاً وقال : هذا سبيل

---

(١٠٠) التوبة : ١١٩
(١٠١) المائدة : ٨
(١٠٢) البقرة : ١٧٩
(١٠٣) البقرة : ٢١
(١٠٤) الانعام : ١٥٣

الله ، ثم خط خطوطا عن يمينه وعن يساره ، وقال:هذه سبل على كل سبيل شيطان يدعو إليه ثم قرأ الآية السابقة)[١٠٥] .

إن الإسلام كله تزكية . والدليل الذي لا يترك لبسا قوله تعالى : (**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**)[١٠٦] ، وَخُلُق الرسول كان متمثلا في تطبيقه لكتاب ربه ، وفي توضيح ذلك تقول زوجه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حينما سألها سعد بن هشام عن خلقه صلى الله عليه وسلم : « **كان خلقه القرآن**[١٠٧] » ، وكذلك قال ﷺ:(**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**) وفي رواية (**صالح الأخلاق**) ، فقد حصر الرسول رسالته في التزكية ، وهذا أعظم دليل على أن رسالة الإسلام تزكية قائمة بذاتها لا تفتقر إلى وسائل ومناهج تربية وإصلاح من لدن البشر .

وعليه فإن هذه القواعد والمناهج التي اندرجت تحت اسم التصوف من قبيل تحصيل الحاصل ، وهذا لا يجوز ، لا سيما في مثل هذا الموضع الذي فيه تَزَيُّد على شريعة رسول الله دون مبرر ، وكل ما لزم الباطل فهو باطل .

٥ ـ وآخرون قالوا : إن شيوخ التصوف الذين ذكرتهم أسندوا الحديث ، ووثقهم علماء الجرح والتعديل ، ومثال ذلك إبراهيم بن أدهم ، والجنيد .

إن هذه المقولة التي تضع بيننا وبين الحقيقة ستارا كثيفا من الشك ، سرعان ما تذوب وتتلاشى أمام نور الحقيقة الذي يوقد من شجرة طيبة مباركة أصلها ثابت وفرعها في السماء .

---

(١٠٥) أخرجه الحاكم وغيره . أنظر كتاب السنة لابن أبي عاصم . تخريج الألباني رقم ١٧ ، وللحديث شواهد كثيرة ذكرها ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٩٠) .

(١٠٦) القلم : ٤

(١٠٧) أخرجه البخاري ومسلم

لقد فرق جمهور علماء الحديث بين المبتدع الداعية والمبتدع غير الداعية ، فمن كان داعية إلى بدعة ، فإنه يستحق العقوبة لدفع ضرره عن الناس ، وإن كان في الباطن مجتهدا ، وأقل عقوبته أن يهجر ، فلا يكون له مرتبة في الدين ، ولا يؤخذ عنه العلم ، ولا يستفتى ولا تقبل شهادته ، لذلك اتفق العلماء من المحدثين والفقهاء وأصحاب الأصول أن المبتدع الذي يكفر ببدعته لا تقبل روايته بالإتفاق ، وأما الذي لا يكفر بها فاختلفوا إلا أنهم ردوا رواية من يستحل الكذب في نصرة مذهبه ، ولأهل مذهبه ، حكي ذلك عن الشافعي حيث قال : « أقبل شهادة أهل الأهواء إلا الخطابية » لكونهم يستحلون شهادة الزور لنصرة موافقيهم ، ومن العلماء من قال تقبل إن لم يكن داعية ، وترد إن كان داعية ، قال النووي : « وهو القول الأمثل والأعدل الصحيح ولهذا لم يخرج أهل الصحيح لمن كان داعية ، لكن رووا هم وسائر أهل العلم عن كثير ممن يرى في الباطن رأي القدرية والمرجئة والشيعة والخوارج » (١٠٨) .

ولهذا قال الحافظ : « الخامسة ـ أي المرتبة الخامسة من مراتب الرواة ـ من قصر عن الدرجة الرابعة قليلا ، وإليه الإشارة بصدوق سيء الحفظ أو صدوق يهم ، أو : له أوهام ، أو يخطىء أو تغير بأخرة ويلحق بذلك من رمي بنوع من البدعة كالتشيع والقدر ، والإرجاء ، والتجهم مع بيان الداعية من غيره » (١٠٩) .

إذا علمنا هذه القاعدة المهمة والتي سار عليها علماء الحديث ، يتضح لنا لماذا أخرج هؤلاء العلماء لهؤلاء المتصوفة ورووا عنهم ، وقد مر معنا أن الجنيد

---

(١٠٨) أنظر شرح مسلم للنووي (١/ ٦٠) . والإيمان . ابن تيمية ص ٣٦٩
(١٠٩) التقريب . (١/ ٤ـ٥)

كان يستتر بالفقه حتى مات أي أنه لم يكن داعية . وكذلك إبراهيم بن أدهم ، بينما جرحوا الحارث المحاسبي كما ذكرنا لأنه كان داعية وإليه ينسب تأسيس مذهب الاستسلام ، ومن المعلوم أيضا أن المحدث إذا روى عن راوٍ لم يكن توثيقا له .

بعد هذا البيان فإن ما ذهب إليه الشيخ سعيد حوى حول موضوع التصوف ، وفصله في كتابيه جولات في الفقهين الكبير والأكبر ، وتربيتنا الروحية ، يجب أن يوضع في دائرة الضوء المنبعث من كتاب الله وسنة رسوله ، ليراه القاصي والداني ، ويعرف مكامن الداء ويقول المنصف كلمة حق ترضي الله عز وجل .

ثانيا - صوفيات سعيد حوَّى

نشأ الشيخ سعيد حوى في أحضان الطرق الصوفية ، ولما بلغ أشده أجازه شيوخ الصوفية ، قال : « لقد تتلمذت في باب التصوف على من أظنهم أكبر علماء التصوف في عصرنا وأكثر الناس تحققا به وأذن لي بعض شيوخ الصوفية بالتربية وتسليك المريدين » [(١١٠)] وأضاف قائلا في موضع آخر : « وإني بفضل الله مع إني مأذون على طريقة الصوفية بتلقين الأوراد عامة بتلقين الاسم المفرد » [(١١١)] .

لذلك قَسَّمَ الإسلام : عقائد ، وأحكام فقهية ، ثم تصوف ، وبنى على ذلك أوهاما أكبر من جبال الهملايا لكنها أرفع من أعواد الخيزران ، وها هي أقواله ناطقة بالحق وفصل الخطاب على أحواله .

---

(١١٠) تربيتنا الروحية ص ١٦ ، وأشهر شيوخه ، عبد القادر عيسى ، ومحمد الحامد .
(١١١) المصدر السابق ص (٣٠١ - ٣٠٢)

١ ـ التصوف يكمل العقائد والأحكام الفقهية ، قال : « وعلم التصوف هو الذي يكمل العقائد من حيث أنه الجانب التحققي فيه » [١١٢] .
ويقول : « فما هو العلم الذي يكمل علم الفقه في هذه الشؤون لا شك أنه علم التصوف » [١١٣] .

٢ ـ التصوف الوسط الذي تكتسب فيه العقائد والأحكام الشرعية المرونة ، والحياة ، قال : « ومن أجل تذوق العقائد الإسلامية وإقامة الأحكام الشرعية قام علم التصوف » [١١٤] .

ويستدل على ذلك بمفاهيم خُيِّلَ إليه أنها أدلة ، قال : « افتح الآن كتاب توحيد وكتاب فقه فإنك لا تجد فيها أي إشارة لقضية القلب وعلومه ، فكتب التوحيد تعصم العقل من الخطأ في باب العقائد ، وكتب الفقه تعصم العمل من الخطأ ولكن لا تجد في هذه الكتب أي تفصيل في باب القلب والنفس والشعور ، وهذا وحده يشير إلى أن هناك علما مكملا لهذه العلوم وقد اصطلح على أن يسمى هذا العلم التصوف أو علم السلوك إلى الله عز وجل .

ثم افتح الآن كتاب عقائد أو كتاب فقه فإنك لا تعثر فيهما على بحث عن أدب الحياة والتعامل ، وهذا يشير إلى أن هناك فراغا موجودا لا بد أن يملأه علم من العلوم يكمل بناءه علمي الفقه والعقائد ، وفعلا فإننا نجد أن كتب التصوف هي التي تسد هذا الفراغ ، ومن ثم فإنك تجد أن كل باب من أبواب العقائد لا بد أن يوجد ما يكمله في باب التصوف ، وكل باب تقريبا من أبواب الفقه لا بد أن يوجد ما يكمله في باب التصوف والسلوك » [١١٥] .

---

(١١٢) المصدر السابق ص ٦٤
(١١٣) المصدر السابق نفسه ص ٦٨
(١١٤) جولات في الفقهين ص ٣٩
(١١٥) المصدر السابق ص ١١٨

هذا التصور من مقتضيات التمذهب والإعراض عن الكتاب والسنة ، حيث التزم أكثر الناس التقيد بالفقه المدون في كتب المذاهب الأربعة لا يحيدون عنه .

إن كتب العقيدة والفقه خلت من الإشارة إلى الإخلاص والتقوى ، لأنها أسست على هذا الأصل الذي لا يثبت أمام النقد العلمي ، وسنفصل القول فيه ـ إن شاء الله تعالى .

الأولى والأحرى بنا أن نقول:افتح الآن تفسيرا لكتاب الله ، وكتابا يجمع بين دفتيه ما ثبت من حديث رسول الله ، فإنك ستجد الإشارات تترى لقضايا القلب وعلومه ، وتجد تفصيلا في كل ذلك .

وقد ضمن الله لنا العصمة في الوحيين ـ الكتاب والسنة ـ ولم يضمنها في غيرهما من الكتب ، قال الرسول ﷺ : (تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما إن تمسكتم بهما ، كتاب الله ، وسنتي . ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض) [١١٦] .

وهذا التصور من لوازم الاعتقاد أن التصوف علم مستقل بذاته عن العقائد والأحكام ، ومن المعلوم أن أمور التقوى ثمرة التطبيق الكامل للعقائد والأحكام الشرعية ـ كما بيَّنا آنفا ـ لذلك لا يجوز أن نفصل بين العبادة وغايتها وثمرتها ، بل قرن الله دائما بين العبادة والثمرة قال تعالى : ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [١١٧] فعلم أن غاية العبادة كلها التقوى ، ولا يكون الإنسان تقيا إلا بالعبادة المقيدة بالأدلة

---

(١١٦) أخرجه مالك بلاغاً ، والحاكم موصولاً بإسناد حسن
(١١٧) البقرة : ٢١

الشرعية المحررة في ضوء الكتاب والسنة ، ومن رغب عن ذلك فهو كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه .

وإذا علمنا ذلك فيجب أن نؤمن أن الله قد أتم هذا الدين شرعة ومنهاجا ، لأن الذي شرع الغاية لم ينس الوسيلة وقد بين ذلك في كتابه:﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (١١٨) .

وحسبك هذا دليلا لتعلم خطورة القول أن الإسلام يبقى ناقصا في مجال التربية ـ والإسلام كله تربية ـ ما لم نأخذ ونستفد من التجربة الصوفية ، يقول سعيد : « إنه بدون الاستفادة من التجربة الصوفية قد لا نستطيع أن نعالج الكثير من أمراض النفس التي عقدتها مسيرة الحياة وطبيعة العصر » (١١٩) . وقال : « لقد جربت كثيرا ورأيت كثيرا ونادرا ما وجدت كمالا في النفس أو إحسانا في السلوك أو قدرة على التعامل إلا إذا وجدت تربية صوفية صافية وذلك لأن مفاتيح النفس البشرية إنما هي في هذه التربية وأصولها وقواعدها لأن الصوفية هم الذين ورثوا عن الرسول ﷺ تربية النفس وتخصصوا لذلك وتفرغوا وفطنوا لما لم يفطن له غيرهم وقامت لهم أسواق من التجارب الثرة في كل عصر فما لم يأخذ الإنسان عنهم تبقى نفسه بعيدة عن الحال النبوية . إن الصوفية هم الذين ملكوا العلم الذي تتهذب به النفوس البشرية » (١٢٠) .

إن تجارب الصوفية قاصرة وناقصة ، لأنها تجارب بشرية وكل ابن آدم خطاء ، والله لم يضمن العصمة لأحد من البشر إلا الأنبياء عليهم السلام ،

---

(١١٨) المائدة : ٣

(١١٩) تربيتنا الروحية ص ٢٠

(١٢٠) المصدر السابق ص ٢١

لذلك لم يدع أمر القلب والنفس والتربية للتجربة ، بل وضع منهاجا جامعا لم يغادر صغيرة ولا كبيرة في حياة الانسان من مولده إلى لحده إلا أحصاها . وأمر رسوله ﷺ وأمته أن تتبع سنن الهدى التي أنزلها حذو القذة بالقذة ، فقال عز من قائل : ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ [(١٢١)] . ثم إن هذه المناهج التي اندرجت تحت اسم التصوف قد جمعت في طياتها شر مستطير . وبلاء بلا حصر ولا حد ، ولو جردنا التصوف من الشوائب التي تراكمت عليه عبر العصور ، وصفيناه من الدخن لم يبق منه شيء ، وهذا كتاب الله وسنة رسوله حكم بيننا وبين من أصر على التصوف وتمسك بأمور منه ، وعض عليها بالنواجذ ، يقول الأستاذ سعيد حوى : « إنني حريص على أن يوجد نوع من التصوف السلفي له شيوخه وحلقاته : حلقات العلم والذكر وليس أمالي غير هذا الطريق » [(١٢٢)] .

إن هذه الحلقات لم تسند إلى دليل ، ولم تقم على أصل من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ ، ولم تأسس على تقوى الله ، فكيف تكون سبيلا لتحصيل التقوى وتطهير القلب وتصفية النفس ؟ !

استمع إلى الشيخ سعيد وهو يحدد معالم هذه الحلقات الصوفية .

١ - جلسات متنوعة : « **بالإمكان إنشاء الجلسات التالية في كل مسجد** . جلسة ذكر ، جلسة صلاة على رسول الله ﷺ ، ويمكن أن تدمج الجلستان فتكون الجلسة على الشكل التالي : **تبدأ الجلسة مثلا بعد صلاة الصبح يوم الجمعة أو بعد صلاة الظهر أو بعد صلاة العصر يوم الجمعة أو في**

---

(١٢١) الجاثية : ١٨

(١٢٢) تربيتنا الروحية ص ١٦

يوم آخر يبدأ الحاضرون بشكل منفرد وسري يصلون **على الرسول بالصيغة التي يرتاحون لها** ، والصيغة التي تحقق الحد الأدنى من الأمر بالصلاة عليه وهي قولنا اللهم صل على محمد وآله وسلم/**ويمكن اعتماد زمن بعينه ثلث ساعة مثلا أو عددا بعينه بحيث لا يرهق الحاضرون ثم بعد ذلك يبدأ الذكر** ونحن جلوس كقولنا/سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر/حوالي مائة مرة ثم يمكن أن يكون بعد ذلك **شيء من الإنشاد المنتقى شعره** ثم تختتم الجلسة بشيء من قراءة القرآن ، ويمكن حذف فقرة الإنشاد إذا لم تتوفر شروطها والمهم في الجلسة ألا تكون طويلة ولا يكون فيها ما يمكن أن يشكل مأخذا لفقيه » (١٢٣) ، وكرر هذه المعاني صفحة **١٧٣ ، ١٩٢** من المصدر المشار إليه في الحاشية .

٢ ـ عدد كثير وجم غفير .

انظر إليه وهو يستحسن ويقيس الأمور بعقله ، ويجتهد في مواضع النص ، قال : « ولا يظن ظان أن المسألة تحتاج إلى مئات بل إلى الآلاف وعشرات الآلاف حتى يستقر معنى الاستغفار وحقيقته في القلب » (١٢٤) ، ثم يقول : « فيطلب منه ـ أي المريد ـ أن يلازم الصلاة على الرسول ﷺ أياما طوالا وأن يكررها عشرات الآلاف حتى تؤتي ثمارها في إصلاح القلب وتنويره » (١٢٥) . ويضيف قائلا : « فيبدأ الأخ الاستغراق بذكر لا إله إلا الله أياما طوالا وبعشرات المرات حتى يصبح قلبه موحدا خالصا مستنيرا استنارة كاملة وهكذا » (١٢٦) ، ولم يستطع أن يكبح جماح التصوف فيضرب عن

(١٢٣) المصدر السابق ص ١٨٢
(١٢٤) المصدر نفسه ص ١١٣ ، وانظر المدخل إلى حركة الإخوان المسلمين ص ٣٣٥
(١٢٥) المصدر نفسه ص ١١٣
(١٢٦) تربيتنا الروحية ص ١١٤

عشرات الآلاف ، ويزداد افتراء على دين الله ، وتقولا على سنة رسول الله ، قال : « فنحن نؤثر أن يترك هذا لفراسة الأخ المربي ورؤيته احتياجات الأخ المسلم كما يترك هذا لإحساسات الأخ نفسه وبعضهم يرى سبعين ألفا لكل نوع من أنواع الذكر المطلق كافية في حالة الإبتداء [١٢٧] لنقل المسلم من حالة إلى حالة خاصة في الأذكار التي ذكرناها الإستغفار والصلاة على النبي ﷺ ولا إله إلا الله . وبعض المشتغلين بالتصوف وبعض الكاتبين يعتبرون أن القفزة العالية نحو معرفة الله لا بد فيها من ذكر الاسم المفرد » [١٢٨] .

وحجته التي أقام هذه الحلقات على أساسها قوله : « هناك عبادات ندبنا إليها بشكل مطلق كالذكر الكثير دون تحديد ، لقد ندبنا إلى الاستغفار الدائم وإلى التهليل الدائم وإلى الصلاة على رسول الله ﷺ ، وقد لحظ بعض المربين خلال العصور أن الاطلاق مع وجود الاقبال ووجود العلم يعطي ثماره ولكن العامة وفتور الاقبال على الله في العصور المتأخرة يقتضي أن يدرج السالك إلى الله ، فيطلب منه أن يذكر عددا معينا ثم يدرج لغير ذلك حسب استعداده وبما يحتاجه لشفاء قلبه وبما يحتاجه إلى النقل إلى اليقظة القلبية ، هذه المعاني أوجدت فكرة الإلتزام بعدد معين في العبادات المطلقة » [١٢٩] .

عندما يطلق الإنسان العنان لعقله المحدود ، ويجعله حكما على الشرع ، يحلق في متاهات ، ويقع في تناقضات ، والمعصوم من عصمه الله .

إن حلقات الذكر الآنفة الذكر لم تثبت في السنة ، ولم تعهد عن الصحابة ، بل مخالفة لهدى محمد ﷺ ـ وخير الهدي هدي محمد ـ لذلك لا يجوز

---

(١٢٧) وقد استحسنه صفحة ١٢١ قائلاً: « وليحاول أن يذكر كلاً منها سبعين ألفاً ، فعدد السبعين تتحقق فيه الكثرة »

(١٢٨) تربيتنا الروحية ص (١١٤ ـ ١١٥)

(١٢٩) في آفاق التعاليم ص ١٠١

التقيد بها ، ويجب محاربتها ، وكشف خطلها ، وبيان عوارها عملا بقول رسول الله ﷺ وامتثالا لأمره : (ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي ، إلا كان له من أمته حواريُّون وأصحاب ، يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، **ثم إنها تخلُف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه ، فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**) . قال أبو رافع : فحدثت عبد الله بن عمر فأنكره عليَّ ، فقدم عبد الله بن مسعود فنزل بقناة فاستتبعني إليه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يعوده ، فانطلقت معه ، فلما جلسنا سألت ابن مسعود عن هذا الحديث فحدثنيه كما حدَّثت ابن عمر [١٣٠] .

وبين يديك تفصيلا بالأدلة ينقض صرح هذه العبادات المبتدعة كيفاً ووصفاً ، وشكلاً ومضموناً .

١ - تخصيص يوم الجمعة ، وقد نهى رسول الله ﷺ عن تخصيص يوم الجمعة بصيام أو ليلته بصلاة . عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لا تخصوا لَيْلة الجمعة بقيام من بين الليالي ، ولا تخصوا يَوْمَ الجمعة بصيام من الأيام إلا أن يكون في صوم يصومه أحدكم » [١٣١] .

٢ - التَحلُّق قبل صلاة الجمعة ، وفيه حديث صحيح تضمن نهي صريح وهو الآتي في الفقرة الثالثة .

٣ - إنشاد الشعر في المسجد ، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما

---

(١٣٠) أخرجه مسلم عن ابن مسعود (١/ ٥٠ - ٥١) ، وأحمد (١/ ٤٥٨ ، ٤٦١) شطره الأول .

(١٣١) أخرجه مسلم وفي الباب أحاديث كثيرة أنظر رياض الصالحين للنووي ، بتحقيق الألباني ص ٦١٥ .

قال : « نهى رسول الله ﷺ عن الشراء والبيع في المسجدوأن تَنشد فيه ضالّة ، وأن ينشد فيه شعر ، ونهى عن التحلق قبل الصلاة يوم الجمعة » [١٣٢] .

٤ ـ عبادة لم يتعبدها أصحاب رسول الله ﷺ ، عن حذيفة رضي الله عنه قال : « **كل عبادة لم يتعبدها أصحاب رسول الله فلا تعبدوها** » .

٥ ـ إن الذكر المشروع والتي جاءت الآيات الكثيرة في الحث عليه ،والأحاديث في الحض عليه ، حدد كيفيته وصيغته للمسلم ، فلا يجوز للمسلم اختراع أذكار من عنده ، واتخاذ أوضاع مخالفة لهدى الرسول ﷺ وعمل الصحابة ، فإن فعل فهي البدعة* ـ وكل بدعة ضلالة .

ويكفيك مراجعة كتاب من كتب الأذكار مثل الكلم الطيب لابن تيميةرحمه الله تعالى ، والوابل الصيب لابن القيم رحمه الله تعالى ، والأذكار للنووي رحمه الله تعالى لتجد أحاديث ثابتة تملأ كل وقت الإنسان المسلم من طلوع الشمس إلى غسق الليل ، في يقظته وفي منامه ، فهنيئا لمن وفقه الله لاتباع سنة نبيه ﷺ .

وقد يقال إن الذكر أمر مشروع ، وللمسلم أن يذكر ربه كيف شاء ومتى شاء ، وفي هذا القول من المفاسد أشياء ، أما أن الذكر مشروع فمسألة لا يختلف فيها اثنان ، ولا يتناطح فيها كبشان ، وأما أن يُشَرِّق المسلم ويُغَرِّب فأمر

---

(١٣٢) حديث حسن ، أخرجه أحمد انظر صحيح الجامع الصغيرح (٦٧٦٢)

* هذه البدعة الإضافية التي تستند إلى دليل من جهة الأصل وغير مستنده من جهة الكيف فسميت إضافية لأنها لم تخلص لأحد الطرفين (المخالفة الصريحة أو الموافقة الصحيحة) ومثال ذلك ما قاله الشاطبي : « ومن نوادرها التي لا ينبغي أن تغفل ما جرى به عمل جملة ممن ينتمي إلى طريقة الصوفية من تربصهم ببعض العبادات أوقاتاً مخصوصة غير ما وقته الشارع فيها ، فيضعون نوعاً من العبادات المشروعة في زمن الربيع ، ونوعاً آخر في زمن الصيف ونوعاً آخر في زمن الخريف ، ونوعاً آخر في زمن الشتاء ، وربما وضعوا لأنواع من العبادات لباساً مخصوصاً ، وأشباه ذلك من الأوضاع الفلسفية يضعونها شرعية أي متقرباً بها إلى الحضرة الإلهية في زعمهم . وربما وضعوها على مقاصد غير شرعية كأهل التصريف بالأذكار والدعوات ليستجلبوا بها الدنيا من المال والجاه والحظوة ورفعة المنزلة . . . » الاعتصام (٢/ ١٩)

لا تستقيم قناته ، لأن الذي شرع الذكر لم ينس الوسيلة ، والكيفية ، والزمن ، ولنضرب مثلا لتعلم أي الفريقين أهدى سبيلا ، وأقوم قيلا ؟

حث رسول الله ﷺ على التسبيح والتحميد والتكبير في دبر كل صلاة مكتوبة ، وحدد ذلك عددا ووسيلة ووقتا أما العدد فقال ﷺ : (من سبح الله في دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين وحمد الله ثلاثاً وثلاثين ، وكبر الله ثلاثاً وثلاثين ، **فتلك تسع وتسعون ، ثم قال تمام المائة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير** ، غفرت له خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر) (١٣٣) . وجاء العدد في أحاديث كثيرة وقد حدد فيها كلها ، كحديث زيد بن ثابت الذي أخرجه النسائي وصححه الحاكم ووافقه الذهبي حيث حدد العدد خمسا وعشرين في التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير ، وقد جاء العدد في حديث كعب بن عجرة مرفوعا(١٣٤) . لكنه جعل بدل التهليلة تكبيرة أخرى مع الثلاث والثلاثين ، وأما الوسيلة فهي أصابع اليد اليمنى ، روى الأعمش عن عطاء بن السائب عن أبيه عن عبد الله بن عمرو قال : (رأيت رسول الله **يعقد التسبيح بيمينه** » (١٣٥) وقد أمر الرسول بذلك وَعَلَّمَهُ حيث قال لبعض النسوة كما في حديث يسيره إحدى الصحابيات (عليكن بالتسبيح والتهليل والتقديس ، ولا تغفلن فتنسين التوحيد (وفي رواية : الرحمة) **واعقدن بالأنامل فإنهن مسؤولات وَمُسْتَنْطَقات** » وهو حديث حسن قاله الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (١/١١٢) ، وهو كما قال فقد أخرجه أبو داود رقم (١٥٠١) في الصلاة ، باب التسبيح بالحصى ،

---

(١٣٣) أخرجه مسلم وغيره

(١٣٤) صحيح أخرجه مسلم وغيره

(١٣٥) أخرجه أبو داود في الصلاة ، باب التسبيح بالحصى ، والترمذي وحسنه والحاكم وصححه الذهبي وليس عند الترمذي والحاكم قوله : بيمينه

والتـرمـذي رقم (٣٥٧٧) في الـدعـوات بـاب رقم (١٣١) ، والحـاكم (١/ ٥٤٧) وصححه ووافقه الذهبي .

وأما الوقت فقد بينه رسول الله بأنه عقب الصلاة المفروضة : (معقبات لا يخيب قائلهن أو فاعلهن دبر كل صلاة مكتوبه ، ثلاث وثلاثون تسبيحة ، وثلاث وثلاثون تحميدة ، وأربع وثلاثون تكبيرة)[١٣٦] ، وهذا نص على أن هذا الذكر يقال بعد المكتوبة ، سواء كان للفريضة سنة بعدية أولا ، ومن فعل بعد السنة البعدية فقد خالف السنة كما هو واضح بَيِّن .

وأما الكيفية فللمسلم أن يبدأ بأيهن أراد قال ﷺ : (أحب الكلام إلى الله تعالى أربع ، **لا يضرّك بأيهن بدأت** ، سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر)[١٣٧] .

من خـلال هذا البيـان نلاحظ أن الإسـلام لم يترك أمـر الذكـر همـلا لاستحسان كل فرد بل حصر عدده ، وشرع وسيلته ، وَوَقت زمنه ، وحدد كيفيته . وفي حدود ذلك يستطيع المسلم أن يذكر ربه ، فبإمكانه أن يسبح ثلاثا وثلاثين ، ويحمد ثلاثا وثلاثين ، ويكبر ثلاثا وثـلاثين ، ولا إلـه إلا الله تمام المـائة . أو يسبـح خمسا وعشـرين ، ويحمد خمسـا وعشرين ، ويكبـر خمسـا وعشرين ، ويهلل خمسا وعشرين ، أو يسبح ثـلاثا وثـلاثين ، ويحمـد ثلاثـا وثلاثين ، ويكبر أربعا وثلاثين بيده اليمنى عقب الفريضة لا يضره بأيهن بدأ . وهذا يسمى إختلاف التنوع وهو من رحمة الله بعباده .

ومن تقالّها تلونا عليه حديث الرهط الذين جاءوا إلى بيوت النبي ﷺ

---

(١٣٦) أنظر تعليق رقم (١٣٤) .
(١٣٧) أخرجه مسلم .

يسألون عن عبادته فلما أخبروا فكأنهم تقالّوها ، وقالوا مقولتهم ، فقال لهم الرسول ﷺ : (فَمَن رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِني) [١٣٨] .

ومن اختار السبحة وسيلة ، وقال ما أردت إلا الخير ، وزيادة الخير خير ، قصصنا عليه حادثة ابن مسعود مع قوم قاتلوا الصحابة رضي الله عنهم مع الخوارج والتي أخرجها الدارمي (١/٦٨) بسند صحيح ، والإمام أحمد في « الزهد » وأبو نعيم في « الحلية » : « أن نفرا من التابعين كانوا جالسين على باب عبد الله بن مسعود ، فجاء أبو موسى الأشعري فجلس معهم ، فلما خرج ابن مسعود قال له أبو موسى الأشعري : « يا أبا عبد الرحمن ، إني رأيت في المسجد آنفا أمراً أنكرته ولم أر والحمد لله إلا خيرا » ، قال:ما هو ؟ فقال : « إن عشت فستراه ، رأيت في المسجد آنفا قوما حلقا جلوسا ينتظرون الصلاة ، في كل حلقة رجل ، وفي أيديهم حصى ، فيقول : كبروا مائة ، فيكبرون مائة ، فيقول : هللوا مائة ، فيهللون مائة ، ويقول : سبحوا مائة ، فيسبحون مائة » قال ابن مسعود : فماذا قلت لهم ؟ قال أبو موسى : ما قلت لهم شيئا انتظار رأيك ، أو انتظار أمرك ، قال : أفلا أمرتهم أن يعدوا سيئاتهم ، وضمنت لهم ألا يضيع من حسناتهم شيء ؟ ثم مضى ومضينا معه ، حتى أتى حلقة من تلك الحلق فوقف عليهم فقال:ما هذا الذي أراكم تصنعون ؟ **قالوا : يا أبا عبد الرحمن حصى نعد به التكبير والتهليل والتسبيح ، قال:فعدوا سيئاتكم ، فأنا ضامن ألا يضيع من حسناتكم شيء** ، ويحكم يا أمة محمد ما أسرع هَلَكَتكم ؟ هؤلاء صحابة نبيكم متوافرون وهذه ثيابه لم تَبْلَ ، وآنيته لم تكسر ، **والذي نفسي بيده إنكم لعلى ملة هي أهدى من ملة محمد ، أو مفتتحو باب ضلالة ،**

---

(١٣٨) أخرجه الشيخان عن أنس رضي الله عنه

قالوا : والله يا أبا عبد الرحمن ما أردنا إلا الخير ، فقال : وكم مريد للخير لن يصيبه ،إن رسول الله حدثنا : (إن قوما يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم) وأيم الله ما أدري لعل أكثرهم منكم ، ثم تولى عنهم ، فقال عمرو بن سلمة : **« رأينا عامة أولئك الحلق يطاعنونا يوم النهروان مع الخوارج »** (١٣٩)

وما أكثر تناقض الشيخ سعيد ! فقد زعم أننا نُدِبنا إلى الذكر وقد جاء مطلقا فإذا به يقيد هذا الاطلاق المزعوم دون دليل ومن المعلوم أن المطلق يبقى على اطلاقه ما لم يأت دليل يقيده . ولئن سألته عن الدليل قال : « قد لحظ بعض المربين خلال العصور أن الإطلاق مع وجود الإقبال ووجود العلم يعطي ثماره ولكن إلعامة وفتور الإقبال على الله في العصور المتأخرة يقتضي أن يدرج السالك إلى الله ، فيطلب منه أن يذكر عددا معينا ثم يدرج لغير ذلك على حسب استعداده وبما يحتاجه شفاء قلبه وبما يحتاجه إلى النقل إلى اليقظة القلبية ، هذه المعاني أوجدت فكرة الالتزام بعدد معين في العبادات المطلقة » (١٤٠) .

لقد خالف الدليل الذي استند إليه ، وعول عليه ، عندما زعم أن الندب إلى الذكر جاء مطلقا وقيده بسبعين الف مرة دون دليل ، وإنما استحسان ، وهل الاستحسان يقيد المطلق ؟ !

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه : « كل بدعة ضلالة وإن رآها الناس حسنة » (١٤١)

قال الإمام مالك : « من زعم أن في الإسلام بدعة حسنة فقد زعم أن محمدا خان الرسالة » (١٤٢)

---

(١٣٩) هذا الأثر الصحيح تضمن أصولاً عظيمة لا يدركها إلا المتبعون ، انظر تفصيلها في رسالتي « اللباب في فقه السنة والكتاب » يسر الله طبعها .

(١٤٠) في آفاق التعاليم ص ١٠١

(١٤١) اخرجه الدارمي بإسناد صحيح

(١٤٢) ذكره الشاطبي في الاعتصام عن ابن الماجشون عن مالك

قال الشافعي : « من استحسن فقد شرع »

وقال : « الاستحسان تلذذ ، ولو جاز الأخذ بالاستحسان في الدين جاز ذلك لأهل العقول من غير أهل العلم ، ولجاز أن يشرع في الدين في كل باب وأن يخرج كل أحد لنفسه شرعا » (١٤٣) أ هـ بتصرف

وجهله عندما قال إن الذكر جاء مطلقا فإن السنة الفعلية خصصت هذا الإطلاق ، فرسول الله وهو أعبد البشر وأتقاهم كان لا يزيد في اليوم عن مائة مرة ، قال عليه الصلاة والسلام : (إنه ليغان على قلبي ، وأني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة) (١٤٤) . ومن يرغب عن سنة المصطفى إلا من سفه نفسه .

ومن عجائب الأستاذ سعيد حوى أنه يعتبر الذكر بالاسم المفرد : الله الله الله قفزة عالية إلى معرفة الله ، وسلفه في هذه البدعة الشبلي الذي سئل لِمَ تقول الله ، ولا تقول لا إله إلا الله ؟

فقال : «أستحي أن أوجه إثباتا بعد نفي ، فقال السائل : أريد حجة أقوى من هذه . فقال : أخشى أن أوخذ في كلمة الجحود ولا أَصِلُ إلى كلمة الإقرار »* وكذلك ابن عربي:« اشتغل بذكر الله بأي نوع شئت من الأذكار ،

---

(١٤٣) الرسالة للشافعي ص(٥٠٣ – ٥٠٨)

(١٤٤) صحيح أخرجه مسلم وأحمد وأبو داود عن الأغر المزني

* قال ابن تيمية رحمه الله:« وما يذكر عن بعض الشيوخ من أنه قال : أخاف أن أموت بين النفي والإثبات ، حال لا يقتدى بصاحبها ؛ فإن في ذلك من الغلط ما لا خفاء به ؛ إذ لو مات العبد في هذه الحال ، لم يمت إلا على ما قصده ونواه ؛ إذ الأعمال بالنيات : وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بتلقين الميت : « لا إله إلا الله » وقال : « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة » ، ولو كان ما ذكره محذوراً ، لم يلقن الميت كلمة يخاف أن يموت في أثنائها موتاً غير محمود ، ما كان يلقن ما اختاره من ذكر الاسم المفرد .

والذكر بالاسم المضمر المفرد أبعد عن السنة ، وأدخل في البدعة وأقرب إلى ضلال الشيطان ؛ فإن من قال : يا هو يا هو أو هو هو ، ونحو ذلك ، لم يكن الضمير عائداً إلا إلى ما يصوره قلبه ، والقلب قد يهتدي وقد يضل » أ هـ من العبودية طبعة المكتب الاسلامي ص (١٥٨ - ١٥٩)

وليكن الاسم المفرد الجامع هو الله ، الله ، وإن شئت هو هو لا تتعدى هذا الذكر » (١٤٥)

انظروا إلى هذا العلم الدقيق وإلى التعالي عن شريعة الله واختيار ما لم يختره أعبد البشر وأعلمهم وأتقاهم صلى الله عليه وسلم ، فإنه صلى الله عليه وسلم كان يأمر بقول لا إله إلا الله ، وكان يقولها دبر كل صلاة ، وكان يقولها إذا قام من الليل لأنها أفضل الذكر . ففي الحديث الحسن الذي أخرجه ابن ماجه والحاكم والبغوي في شرح السنة (أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الشكر الحمد لله) .

ويحتج الأستاذ سعيد حوى على صحة الذكر بالاسم المفرد (١٤٦) بأنه داخل تحت العموميات العامة ، وصاحبه منفذ للأمر ومأجور ومشكور . قال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيهِ تَبْتِيلاً ﴾*

---

(١٤٥) الحدائق الوردية ص ٢٩١

(١٤٦) أنظر تربيتنا الروحية ص (٣٠٠ ، ٣٠١)

* هذه العموميات التي في القرآن من قوله تعالى (واذكر اسم ربك وتبّل إليه تبتيلا) وقوله (سبِّح اسم ربك الأعلى) وقوله (فسبِّح باسم ربِّك العظيم) لا يدل على جواز الذكر بالاسم المفرد ، ففي الحديث الصحيح الذي أخرجه أحمد وأبو داود أنه لما نزل قوله تعالى (فسبِّح باسم ربك العظيم) قال صلى الله عليه وسلم « اجعلوها في ركوعكم »ولما نزل قوله (سبح اسم ربك الاعلى) قال « اجعلوها في سجودكم » فشرع أن يقولوا في السجود « سبحان ربي الأعلى » وفي الركوع«سبحان ربي العظيم » وثبت عن الرسول أنه كان يقول ذلك في ركوعه وسجوده وهذا معنى قوله تعالى (فسبِّح باسم ربك العظيم) وقوله (سبِّح اسم ربك الأعلى) لأن تسبيح اسم ربه الأعلى وذكره لا يكون إلا بالكلام التام المفيد والاسم المفرد لا يحقق ذلك .

ويحتج آخرونَ بقوله تعالى (قل الله ، ثم ذرهم) زاعمين أنه الله أمر نبيه بأن يقول الاسم المفرد ، وهذا وهم فإن قوله تعالى (قل الله) جواب لقوله : (قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى . . . ؟ قل : الله) أي الله الذي أنزل الكتاب رد بذلك قول من قال (ما أنزل الله على بشر من شيء) .

من ذلك يتبين أن الاسم ، الله مذكور في الأمر بجواب الاستفهام ، فالاسم الله مبتدأ ، خبره قد دل عليه الاستفهام كقولك:من صديقه ؟فيقول : زيد .

وبعضهم يستدل بقوله صلى الله عليه وسلم:« لا تقوم الساعة على احد يقول : الله » أخرجه مسلم . وقد جهلوا أن معنى«الله»في الحديث : توحيد الله كما في رواية أحمد « لا تقوم الساعة على أحد يقول:لا إله إلا الله » . =

إن السنة هي التي شرحت القرآن ، وخصصت عامه وقيدت مطلقه ، وبَيَّنَتْ مجمله ، فهل تجد فيها الذكر بالاسم المفرد ؟ !

إن الذكر بالاسم المفرد مبتدع لم يرد في أذكار السنة الثابتة التي تولت شرح كيفية الذكر ، كما تولت بيان كيفية الصلاة على النبي ﷺ بالصلوات الإبراهيمية .

الشيخ المرشد

يزعم المتصوفة أنه لا بد لكل من أراد سلوك طريق التصوف من شيخ يدله عليه ، ويرشده إليه ، يضع له العلامات وينبهه إلى المخاطر والمزالق ، يستمع إلى أقواله ويتلقى من أحواله ، حتى قالوا : « من لا شيخ له فشيخه الشيطان » (١٤٧)

وقد عقد الشيخ سعيد حوى فصلا في كتابه تربيتنا الروحية بين فيه أهمية الشيخ المرشد . ودعا إلى عقد البيعة للمرشد الكامل ، وحض المريدين من الطرق الأخرى ترك العصبية لشيوخهم والتسليم للمرشد الكامل ـ الشيخ حسن البنا ـ والالتزام المطلق بجماعة المسلمين ـ الإخوان المسلمين قال : « إن

= وقد أورد شيخ الإسلام أدلة بطلان الذكر بالاسم المفرد في كتابه العبودية (ص ١٥٨ ـ ١٦٩) وقال في نهاية هذا البحث القيم « المقصود هنا : أن المشروع في ذكر الله سبحانه ، هو ذكره بجملة تامة ، وهو المسمى بالكلام ، والواحد منه بالكلمة ، وهو الذي ينفع القلوب ، ويحصل به الثواب والأجر ، ويجذب القلوب إلى الله ومعرفته ، ومحبته وخشيته ، وغير ذلك من المطالب العالية ، والمقاصد السامية .

وأما الاقتصار على الاسم المفرد مظهراً أو مضمراً فلا أصل له ، فضلاً عن أن يكون من ذكر الخاصة والعارفين .

بل هو وسيلة إلى أنواع من البدع والضلالات ، وذريعة إلى تصورات وأحوال فاسدة من أحوال أهل الإلحاد وأهل الاتحاد » أ هـ

(١٤٧) المصدر السابق ص ٢٤٠

التسليم لغير المرشد الكامل والالتزام المطلق بغير جماعة المسلمين وإمامهم خطآن كبيران ، وأكثر الصوفية الآن تغيب عنهم هاتان القضيتان فعلى كل مسلم أن يراجع نفسه في هذا الشأن فيترك العصبية العمياء لشيخه إذ يعطيه مقاما غير مقامه ويترك هذه السيوبة عن جماعة المسلمين ، فإن الالتزام بجماعة المسلمين هو واجب شرعي وقد ذكرنا في رسالة المدخل (١٤٨) من هذه السلسلة شروط اعتبار مجموعة ما جماعة المسلمين فلتراجع ، فإذا كانت موجودة فلنلتزم بها وإلا فلنوجدها »(١٤٩) ويضيف قائلا : « إننا نملك بفضل الله نقطة البداية الصحيحة وهي الانطلاق عن اجتهاد انسان مجدد لا يشك عارفوه أنه من أولياء الله عز وجل وهو الأستاذ البنا رحمه الله وعلينا أن ننطلق بدفعة التجديد في هذه الأمة مهما كلفنا ذلك » (١٥٠)

والذي يهمنا هنا العلاقة بين الشيخ والمريد ، والتي فاضت بوصفها كتب التصوف في القديم والحديث ، والتي لم يذكرها الشيخ نفيا ولا إثباتا ، لكننا لم نعدم الأدلة التي توضح لنا ماهية هذه العلاقة استنباطا من الحقائق التالية :

١ - يعتبر الشيخ سعيد حوى الإمام حسن البنا مرشدا كاملا

٢ - لقد بين حسن البنا هذه العلاقة في رسالة التعاليم قائلا : « ونظام الدعوة - في هذا الطور - صوفي بحت من الناحية الروحية وعسكري بحت من الناحية العملية ، وشعار هاتين الناحيتين دائما (**أمر وطاعة**) **من غير تردد ولا مراجعة ولا شك ولا حرج** » (١٥١)

---

(١٤٨) ذكر في المدخل أن جماعة الإخوان المسلمين هم جماعة المسلمين وكذلك في كتابيه جولات في الفقهين الكبير والأكبر ، ومن أجل خطوه الى الأمام .

(١٤٩) تربيتنا الروحية ص (٢٣٩ - ٢٤٠)

(١٥٠) المصدر السابق ص ٢٤٦

(١٥١) في آفاق التعاليم ص ٦٦ .

هـذه الكلمات اختصـار للعلاقـة بين الشيـخ والمريـد والتي فصلتهـا وشرحتها كتب التصوف عبر العصور ، وإليك شرحا لهذه الكلمات من أوثق كتب التصوف .

لقد طلب التصوف من المريد أن يكون مع شيخه كالميت بيد المغسِّل ، قال الشعراني : « المريد الصادق مع شيخه **كالميت مع مغسِّله لا كلام ولا حركة ولا يقدر أن ينطق بين يديه من هيبته** » (١٥٢) وهذا البند عبر عنه حسن البنا بقوله « ولا يكفل النجاح في هذا الطور **إلا كمال الطاعة** كذلك » (١٥٣)

وكذلك طالب التصوف المريد أن ينفذ ما يملى عليه دون مناقشة ، قال ابن عربي : « **أَحْسِنِ الظن ولا تنتقد بل اعتقد** وللناس في هذا المعنى كلام كثير **والتسليم أسلم** والله بكلام أوليائه أعلم » (١٥٤) وهذا ما عبر عنه البنا بقوله : « وشعار هاتين المرحلتين دائما (**أمر وطاعة**) **من غير تردد ولا مراجعة ولا شك ولا حرج** »

وطلب منه أيضا ألا تعدو عيناه تريد أخذ العلم الصوفي عن شيخ آخر ، لأن المريد بين شيخين كالمرأة بين رجلين ، وهذا ما عبر عنه الإخوان تلاميذ حسن البنا بازدواجية الولاء (١٥٥) .

---

(١٥٢) الأنوار القدسية (٢/١٨٩) ، وانظر الإحياء (١/٥٠ ، ٥١) ، (٣/٧٥)
(١٥٣) في آفاق التعاليم ص ٦٦
(١٥٤) مقدمة الفتوحات المكية (١/٥) وانظر الأنوار القدسية (١/٤٠٤)
(١٥٥) انظر كتابنا الجماعات الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة (ط ٢ ص ١٠٢)

وبمثل هذه التعاليم أسكت الصوفيون ألسنة مريديهم ، وأفلتوا العنان لأنفسهم وألسنتهم لتقول ما تشاء بعد أن أَمِنوا من ألسنة الإنكار .

وإذا استعمل أحد المريدين عقله ، وبدأت تتحفز في نفسه التساؤلات ، فمصيره الطرد والحرمان والتجميد[156]

أما هذا التصوف من آخر ؟

إذا كان الشيخ سعيد حوى قد أقام ركني التصوف : الذكر ، والشيخ المرشد ، فإنه أبى إلا متابعة الصوفية ، بالرجوع إلى ترهاتهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة ، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب ، لجثا على هذا صنما ، وتلا ذلك كتاباً محكما .

وإليك بياناً بهذه الأباطيل التي دعا إليها ، وأقر الصوفيين عليها .

١ـ جواز التوسل بذات الرسول حياً وميتاً قال : « والرواية الصحيحة التي مرت معنا تدل على أن فكرة التوسل إلى الله برسوله عليه السلام كانت موجودة في جيل الصحابة بعد وفاة رسول الله ﷺ »[157]

هذه الرواية التي زعم أنها صحيحة هي حادثة عثمان بن حنيف في زمن خلافة عثمان حيث علم إنساناً أن يتوجه إلى الله برسول الله وذلك بعد وفاته ﷺ ، قال بعد أن أورد هذه الحادثة « وقد رأينا قول الطبراني أن الحديث صحيح وهو حجة في باب جواز التوسل إلى الله برسله بعد وفاتهم »[158] .

---

(١٥٦) المصدر السابق ص (١٠١ ـ ١٠٧)
(١٥٧) تربيتنا الروحية ص ٣١٠
(١٥٨) المصدر السابق ص ٣٠٩

أنى لهذه الرواية الصحة ، وقد اجتمعت فيها ثلاث علل قادحة ؟ قال الشيخ محمد ناصر الدين الألباني : « وخلاصة القول : أن هذه القصة ضعيفة منكرة ، لأمور ثلاثة :

ضعف حفظ المتفرد بها ، والاختلاف عليه فيها ، ومخالفته للثقات الذين لم يذكروها في الحديث ، وأمر واحد من هذه الأمور كاف لإسقاط هذه القصة ، فكيف بها مجتمعة ؟ ! »(١٥٩)

٢ـ الاعتقاد بأن الألعاب الشيطانية التي يقوم بها أفراد الطريقة الرفاعية كرامات قال : « **وقد حدثني مرة نصراني عن حادثة وقعت له شخصياً** وهي حادثة مشهورة معلومة جمعني الله بصاحبها شخصياً بعد أن بلغتني الحادثة من غيره وحدثني كيف أنه حضر حلقة ذكر فضربه أحد الذاكرين بالشيش في ظهره فخرج الشيش من صدره حتى قبض عليه بيده ثم سحب الشيش ولم يكن لذلك أثراً أو ضرراً ، إن هذا الشيء الذي يجري في طبقات أبناء الطريقة الرفاعية ويستمر فيهم هو من أعظم فضل الله على الأمة إذ من رأى ذلك تقوم عليه الحجة بشكل واضح على معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء »(١٦٠)

إن أثر التزوير ظاهر على هذه القصة ، فهي من رواية نصراني ، والعجيب الغريب أنه بطل هذه القصة فلماذا لم يسلم وقد قامت عليه الحجة ؟ ! فهل يصح أن نصدق فاسقاً كافراً ؟ ! إن علماء الإسلام ردوا روايات الراوي الضعيف المسلم ، بله رواية النصراني المشرك

---

(١٥٩) التوسل : أنواعه وأحكامه ، الألباني ص ٨٨ ، وفي هذا الكتاب بيان كامل لهذه العلل فراجعه فإنه مهم . ومن شاء التفصيل في موضوع التوسل فعليه بالكتاب المذكور ، وقاعدة جليلة في التوسل والوسيلة لشيخ الاسلام ابن تيمية .

(١٦٠) تربيتنا الروحية ص ٢١٨

ومن ثم فهذه الكرامات وَقْف على أبناء الطريقة الرفاعية وهي تحصل بمجرد أن يأخذ البيعة عن الشيخ ، بل أحياناً بدون بيعة[١٦١] ولا أرغب أن أقف طويلاً عند هذه الترهات ، لأن كثرة المناقشة حول هذه الأباطيل امتهان للكرامات الصحيحة ، والتي محلها العقيدة ولا ينكرها إلا جاهل ، ولكن للكرامات شروطها .

إن هذه الأمور التي يُخَيَّل إلى الصوفيين أنها كرامات ، وما هي بكرامات يصدق فيها قول ابن الجوزي رحمه الله : « وقد اندس في الصوفية أقوام وتشبهوا بهم وشطحوا في الكرامات وادعائها وأظهروا للعوام مخاريق صادوا بها قلوبهم »[١٦٢]

وهذه القصة لا شك أنها كذب محال لا يماري في ذلك عاقل ، فلو قدرنا صحتها فإن طعن الإنسان بآلة حادة حرام لأن فيها إلحاق الضرر بالمطعون ، والحقيقة أنه يُخَيَّل إليهم من سحرهم أنهم طعنوا ، وأما الجمهور المتفرج المخدوع فقد خدعوا أعينهم واسترهبوهم .

وأما قول الأستاذ سعيد « إن ما يحدث لهؤلاء لا يمكن أن يكون سحراً ، لأن السحر جزء من عالم الأسباب ، وها هنا لا نجد لعالم الأسباب محلاً » فقد بين فساد هذا القول قديماً ابن تيمية رحمه الله تعالى في المناظرة التي جرت بينه وبين بعض دجاجلة الطريقة الرفاعية ، وقد بَيَّنَ فيها فساد طريقتهم فقال: « ولقد كتبت في غير هذا الموضع صفة حال هؤلاء البطائحية وطريقتهم وطريقة الشيخ أحمد بن الرفاعي ، وذلك أني كنت أعلم من حالهم ، وهو أنهم وإن كانوا

---

(١٦١) المصدر السابق

(١٦٢) تلبيس ابليس ص ٣٨٦ . وقد روى هذا العالم الجليل قصصاً لا تعد ولا تحصى وفندها جميعها فلا يغتر المسلم بكل ما سمع .

منتسبين إلى الإسلام وطريقة الفقر والسلوك ، فيوجد في بعضهم أيضاً من الشرك وغيره من أنواع الكفر ، ومن الغلو في البدع في الإسلام ، والإعراض عن كثير مما جاء به الرسول ﷺ ، والاستخفاف بشريعة الإسلام ، والكذب ، والتلبيس ، وإظهار المخاريق الباطلة ، وأكل أموال الناس بالباطل ، والصد عن سبيل الله ما يوجد .

ولقد بينت صورة ما يظهرونه من المخاريق مثل ملابسة النار والحيات وإظهار الدم . . . وأن عامة ذلك من حيل معروفة وأسباب مصنوعة » أهـ ومن شاء المزيد فليرجع إلى مجموعة الرسائل والمسائل (١/١٢١ - ١٤٦) فقد قتل المسألة بحثاً . وقال في آخر كلامه« **إن الرفاعية شبه الرافضة ، بيت الكذب** »

ويظهر لي أن سعيداً لا يفرق بين الكرامة والاستدراج في قوله:« إن الحجة الرئيسية لمنكري هذا الموضوع هي أن هذه الخوارق تظهر على يد فساق من هؤلاء ، كما يظهر على يد صالحين ، وهذا صحيح والتعليل لذلك : هو أن الكرامة ليس لهؤلاء بل هي للشيخ الأول الذي كرمه الله عز وجل بهذه الكرامة وجعلها مستمرة في أتباعه من باب المعجزة لرسولنا عليه السلام فهي كرامة للشيخ الذي هو الشيخ أحمد الرفاعي »

إن الكرامة لا تظهر إلا على يد عبد ملتزم صالح ، ومن ثم فهو لا يظهرها ويفتخر بها على الناس خشية الرياء ، أما التعليل الذي ذكره وجعل ذلك كرامة للشيخ صاحب الطريقة فإنه عذر أقبح من الذنب الذي اقترفه ، لأن صاحب الطريقة إن كان صالحاً فهو معادٍ لهؤلاء الفسقة ولا يعدهم من طريقته ، وإذا كان صالحا فليس له طريقة إلا طريقة محمد ﷺ لأن الصالحين يتبعون ولا

يبتدعون ، إن هذا الذي يظهر من المخاريق على يد الفساق إستدراج لهم من حيث لا يعلمون* قال تعالى:﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَادِ . مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ قال الدكتور علي بن محمد ناصر الفقيهي في مقدمته لكتاب الرد على الجهمية لابن مندة ص ١١:« ولكننا نعلم أن رسول الهدى ﷺ مكث في مكة ثلاثة عشر عاماً يبني عقيدة المسلم وينقيها من كل شائبة إذ أنها الركيزة الأولى التي يقوم عليها البناء ، فلم تبن عقائد أولئك على الخرافات التي يؤمن بها ويدعوا إليها الدعاة المعاصرون من أن الذي يعطي البيعة للشيخ الرفاعي بل أحياناً بدون بيعة وإنما إذا انتسب لهذه الطريقة فلا تؤثر فيه النار ، ولا الرصاص ولا السيوف سبحان الله ، وهل يجوز لهذا الداعية المسلم(أي سعيد حوى) ولأصحاب هذه الطريقة أن يتركوا القدس ثالث الحرمين الشريفين وفلسطين يحتلها اليهود وليس عند اليهود إلا النار والرصاص وهما لا يؤثران في هذه الطائفة ويتركون اليهود في القدس ولا يطهرونه من رجسهم ، هذا منهج السلوك ، خرافات صوفية ! » أ هـ

عجباً لأمر هؤلاء ألم يعلموا أن رسول الله ﷺ وهو إمام المتوكلين وأتقى المتقين وأعبد البشر أجمعين لبس يوم أحد درعين وظاهر نفسه بينهما ، وهذه الرواية ثابتة ، فهل أفراد الطريقة الرفاعية أعز على الله من محمد ﷺ ، أم أن الطريقة البطائحية الرفاعية التي يدعو الشباب الإسلامي إليها ويحثهم على جمع المعلومات عنها طريقة محمد ﷺ ؟ « وأني لأطمع أن يوجد من يتتبع هذا الأمر من طلاب العلم النشيطين ويكتب عن هذه الطريقة وشيخها وأتباعه من يوم

---

* ولقد أحسن القائل :

إذا رأيت شخصاً قد يطير وفوق ماء البحر قد يسير
ولم يقف على حدود الشرع فإنه مستدرج وبدعي

وجودها إلى عصرنا » . . . لقد تتبعنا فوجدنا قول ابن تيمية رحمه الله « إن الرفاعية شبه الرافضة ، بيت الكذب ، فإن فيهم الغلو والشرك والمروق عن الشريعة ما شاركوا به الرافضة وأنهم من أكذب الطوائف حتى قيل فيهم : لا تقولوا أكذب من اليهود ولكن قولوا أكذب من الأحمدية » أهـ

إننا ذكرنا ما ذكرنا لتعلم أن سعيداً جمع شذوذات التصوف التي قتلها علماء المسلمين بحثاً بحذافيرها ولم يترك صغيره ولا كبيرة منه إلا أوردها كالإلهام والكشف . . . أيها القارىء لا أريد إرهاقك بكثرة النقول ، وطول الردود ، وفيما ذكرنا كفاية ، ويكفيك من الزاد ما يبلغك المحل ، ولكن قل معي أين التصوف المحرر المزعوم ؟ ! وأين التصوف السلفي الموهوم ؟ ! واعلم أن التصوف بغير هذه الخرافات لن يقوم .

سعيد حوى والتمذهب

أولاً ـ التقليد واتخاذه ديناً ومذهباً

ذكر سعيد المذهبية في كتابين من السلسلة الثانية هما : جند الله ثقافة أخلاقاً ، وجولات في الفقهين الكبير والأكبر في الأول دعا إلى دراسة الفقه الإسلامي على مذهب من المذاهب الأربعة[١٦٣] . وفي الثاني دافع عن رأيه الذي طرحه في الكتاب الأول[١٦٤] ، وأوجب التقليد على كل مسلم ، قال : « فلم يبق أمام أكثر الخلق إلا أن يتفقهوا على مذهب إمام مجتهد ، وأن يستفتوه في المسائل والحوادث **وذلك واجب شرعي** كيلا يسير الإنسان على غير بصيرة وهذا الذي جعل الأمة تستقر على المذهبية الفقهية »[١٦٥] .

إن إقرار التقليد واتخاذه ديناً ومذهباً أمر يحتاج إلى دليل ، لأن الواجب حكم من الأحكام الخمسة التي لا تثبت إلا بنص من القرآن ، أو حديث صحيح أو حسن من السنة المطهرة ولا نعلم في ذلك نقلاً اعتمد عليه ، اللهم إلا قول ناظم جوهرة التوحيد :

ومالك وسائر الأئمة ... كذا أبو القاسم هداة الأمة

فواجب تقليد حبر منهم ... كذا حكى القوم بلفظ يفهم

أما قوله تعالى : ﴿ فَسْئَلوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنْتُم لَا تَعْلَمُونَ ﴾[١٦٦] فلا

---

(١٦٣) جند الله ثقافة واخلاقاً ص ١١٧
(١٦٤) جولات في الفقهين ص ١٧
(١٦٥) المصدر السابق ص ٧١
(١٦٦) الانبياء : ٧ أو النحل : ٤٣

يسند لهم مذهباً ، ولا يقيم لهم ديناً ، للأمور التي سنوردها بعون الله وتوفيقه :

١ ـ أوجبت السؤال . وهو غير التمذهب والتقليد لأن السؤال أخذ ، والتقليد التزام ، والأخذ غير الالتزام ، فالأخذ هو القول ببعض أقوال الإمام ، بينما الالتزام القول بكل أقوال الإمام ، فالذي يأخذ العلم قد يأخذ من الحنفية ما ظهر دليله ، ويأخذ من الحنابلة ما ظهر دليله أيضاً في مسألة أخرى ، لذلك فالأخذ تتبع الأدلة بغض النظر عن ناقلها ، المهم أن يكون الناقل ثقة والدليل ثابتاً ، بينما الالتزام بيت القصيد فيه هو الإمام نفسه لا قول الإمام ، فسواء كان قوله موافقاً للدليل أم مخالفاً فالمقلد يأخذ برأي إمامه الذي رفعه لمقام العصمة ، ولذلك ترى كثيراً من العلماء لا يجرؤ أن يقول أخطأ الإمام في هذه المسألة مع العلم أن الحديث النبوي بخلاف الفتوى ، بل أن المقلدين أفتوا بوجوب رد كل حديث أو آية لا توافق ما عليه المذهب ، وذلك بتأويلة أو القول بنسخه وأحكموا هذه الفتوى ، بقول كبيرهم الكرخي : « كل آية تخالف ما عليه أصحابنا فهي مؤولة أو منسوخة ، وكل حديث كذلك فهو مؤول أو منسوخ »[١٦٧] ، وأكدوا ذلك تطبيقاً فمهما جئتهم بآية أو حديث قالوا لك : أأنت أعلم أم المذهب ؟ فها هو سعيد يكرر ما قالوه : « إن الكتب التي بين أيدينا الآن ليست كل ما ألفه علماء المسلمين ، فنحن نعرف كارثة بغداد والأندلس ومكتباتها ، إن هناك أحاديث نحكم بضعفها الآن لأن الكتب التي بين أيدينا ترويها من طريق ضعيف ، بينما لو كانت كتب أخرى موجودة لاختلف الوضع ، وأكبر مثال على ذلك أن هناك أحاديث أسانيدها ضعيفة رواها الحاكم وغيره ، لم تعرف هذه الأحاديث أنها صحيحة ، إلا بعد أن عثر

---

(١٦٧) تاريخ التشريع الإسلامي ، الخضري ، ص ٣٣٢

على كتاب صحيح ابن خزيمة حيث ساق لها أسانيد صحيحة ، هـذه النقطة الهامة تجعلنا لا نتسرع برد حكم إمام مجتهد بحجة أن النصوص الصحيحة التي بين أيدينا تخالفه ، إذ أن هذا الإمام أقرب عهداً بالرسول ﷺ وأصحـابه ، وأعرف بما عليـه الناس من عمـل تلقنوه عن السلف الصـالح رضـوان الله عليهم »[١٦٨]

إن الاحتمال لا يصلح حجة للاستدلال ، ناهيك أنه مخالف لصريح القرآن . فقد تعهد الله بحفظ دينه : قرآناً وسنة ، فقال ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَٰفِظُونَ** ﴾[١٦٩] . فاحتمال ضياع السنة أمر مرفوض لأن الله تعهد بحفظ الذكر ، ولا شك أن السنة ذكر لأنها وحي ، لقوله تعالى:﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ** ﴾[١٧٠] ، والوحي ذكر بإجماع الأمة ، وقد بيَّنت هذا الأمر بالأدلة في رسالتي« اللباب في فقه السنة والكتاب » يسر الله طبعها .

وحدوث كوارث بغداد والأندلس ، وهـلاك جل مـا فيها من الكتب لايستأنس به لترجيح هذا الاحتمال ، إلا إذا تصورنا أنه لا يوجـد من هذه الكتب إلا نسخة واحدة ، وهذا تصور فاسد لأنه يعكس الحقائق التاريخية ، لقد قرأنا عن مؤلفات بعض العلماء المسلمين الذين أراد خصـومهم أن تخلو الأرض من علمهم ، فسعوا إلى إحراق مؤلفاتهم ، إلا أنهم لم يفلحوا . فكيف إذا كان الأمر يتعلق بسنة رسول الله ﷺ ؟ ومن المعلوم أن ضياع ما ألفه بعض المسلمين لا يقتضي ضياع السنة أو بعضها ، إلا أن المقلدين يذهبون إلى أن الدين محفوظ بالمذاهب الأربعة ، نعوذ بالله من الخذلان .

---

(١٦٨) جند لله ثقافة وأخلاقاً ص ١٢٦

(١٦٩) الحجر : ٩

(١٧٠) النجم : ٣ ـ ٤

وقرب عهد الأئمة بالرسول ﷺ والصحابة رضي الله عنهم لا يصلح أن يكون دليلاً على صحة كل ما قالوه ، أو قبول ما فعلوه ، لأنهم لم يحيطوا بكل السنة علماً لأنها لم تكن قد دونت بل كانت متفرقة في صدور الرواة الذين نقلوها كما سمعوها ، ومن المعلوم تاريخياً أن تدوين أغلب السنة وجمعها أتى بعد الأئمة الأربعة ، وهذا من الأعذار التي نقول بها لتعليل وجود أخطاء في أقوال الأئمة ومذاهبهم ، وقد فصل ذلك وشرحه ابن تيمية رحمه الله تعالى عنه في كتابه القيم « رفع الملام عن الأئمة الأعلام » جزاه الله خيراً

٢ـ أوجبت على من لا يعلم أن يسأل من يعلم ، لأن شفاء العي السؤال ، ولم تحصر أهل الذكر في أربعة أئمة وهذا تخصيص دون دليل .

بينما المقلدة أوجبوا السؤال على جميع المسلمين ـ الذين يعلمون والذين لا يعلمون ـ والآية حصرته في الذين لا يعلمون فأطلقوا هذا التقييد دون حجة ، تباً للتقليد فليس له سمع ولا بصر .

٣ـ إن هذا الأمر الرباني لم يحدد مجال السؤال أهو في العقيدة أم في الأحكام ؟ بينما أصحاب المذاهب جعلوا نطاقه الفقه فضيقوا واسعاً ، وعلى ذلك أسسوا قولهم بوجوب التقليد في الأحكام ، ومنعه في العقائد .

لقد نثرنا كنانة المقلدة فوجدنا قولهم : « إن الأمة الاسلامية استقرت على المذهبية الفقهية ، وخصت الأئمة الأربعة بالاعتماد : أبا حنيفة . والشافعي وأحمد ومالكاً في قضايا الفقه العملي »[١٧١] أصلبها عوداً ، لذلك تجدهم يدندنون حولها . ويعكفون عليها بحجة أنها إجماع .

---

(١٧١) هذه الحجة كررها سعيد في بضعة مواضع من كتابه جولات انظر الصفحات ، ٢٢ ، ٦٦ ، ٨١ ، ٩٠ .

ما أوهن دعاوى الإجماع التي ينتحلها المقلدة فراراً من المناقشة . فإذا كانت الأمور التي لا نعلم فيها مخالفاً لا يجوز أن تسمى إجماعاً ، وعلى ذلك حمل العلماء عبارة الإمام أحمد رحمه الله تعالى التي رواها عنه ابنه عبدالله رحمه الله تعالى في مسائله :«من ادعى الإجماع فهو كاذب ، وما يـدريه ؟ لعـل الناس اختلفوا » فكيف والعلماء لا يزالون في كل عصر ينهون عن التقليد وينأون ؟ وعلى رأسهم الأئمة الأربعة رحمهم الله ، فقد امتلأت الكتب بأقوالهم التي تحذر من تقليدهم دون دليل وبينة .

قال الإمام أبو حنيفةرحمه الله تعالى : « لا يحل لأحد أن يأخذ قولنا ما لم يعلم من أين أخذناه »[١٧٢]

قال الإمام مالك رحمه الله تعالى « إنما أنا بشر أخطيء وأصيب ، فانظروا في رأيي فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه ، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه »[١٧٣]

والإمام الشافعي رحمه الله تعالى كان أشدهم إنكاراً على مقلديه ، ولقد تبرأ أن يقلد جملة[١٧٤] ، قال : « إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله ، فقولوا بسنة رسول الله ، ودعوا ما قلت »[١٧٥]

والإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى أكثرهم جمعاً للسنة وتمسكاً بها ، وقد أسلس الشافعي رحمه الله قياده في الحديث للإمام أحمد رحمه الله تعالى حيث خاطبه قائلاً : « أنت أعلم بالحديث مني فما صح عندك فأخبرنا بـه لنعمل

---

(١٧٢) الانتقاء لابن عبد البر ص ٢٠

(١٧٣) إيقاظ الهمم للفلاني ص ٧٢

(١٧٤) الإحكام لابن حزم (٦/١١٨)

(١٧٥) المجموع للنووي (١/٦٣)

بمقتضاه »[١٧٦] . وكان الإمام أحمد رحمه الله تعالى يقول : « لا تقلدني ولا تقلد مالكاً ، ولا الشافعي ، ولا الأوزاعي ، ولا الثوري . وخذ من حيث أخذوا »[١٧٧] . وقد اتفق الأئمة الأربعة على أن حديث النبي حجة بنفسه حيث قالوا : « إذا صح الحديث فهو مذهبي » *

وهناك من يقصر أقوالهم رحمهم الله على المجتهد ، وهذا خطأ ، وقد بينه الفلاني قائلاً : « هذا ونحوه ليس في حق المجتهد لعدم احتياجه في ذلك إلى قولهم بل هو في حق المقلد »[١٧٨]

إن المقلدين وهم يوجبون التقليد قد خالفوا وصايا أئمتهم الذين يزعمون تقليدهم حباً ووقوفاً عند أقوالهم .

ناهيك أن اتفاق المقلدة على أمر لا يعتبر إجماعاً ، لأن الإجماع الأصولي المعتبر الذي يمكن أن يتحقق وقوعه هو إجماع أهل العلم في كل عصر ، وقد بسطت القول حول هذا الموضوع الأصولي المهم في رسالتي « اللباب في فقه السنة والكتاب » فلله الحمد والمنة

التقليد ضرورة

إن إنكار التقليد مُنْصَبٌّ على الخاصة الذين يظن أنهم من أهل العلم ، وفي إمكانهم معرفة المسائل كلها أو بعضها بالدليل ، أما العامة الذين لا يتبينون موقع الحجة ، ولا يصلون لعدم الفهم إلى علم ذلك ، لأن العلم درجات لا

---

(١٧٦) الإنتقاء لابن عبد البر ص ٧٥

(١٧٧) إعلام الموقعين (٣٠٢/٢)

* أنظر رسالة السبكي « معنى قول الإمام المطلبي إذا صح الحديث فهو مذهبي » الواردة ضمن مجموعة الرسائل المنيرية (٩٨/٢ - ١١٤) .

(١٧٨) الإيقاظ ص ٥٠

سبيل منها إلى أعلاها إلا بنيل أدناها ، فلا بد من تقليد أهل العلم عند نزول نازلة بهم ضمن الشروط التالية:

١ - إذا علم العامي دليلاً يخالف ما هو عليه ، وتبين له خطأ من يقلده فعليه اتباع الدليل .

٢ - لا يجوز الانحباس في مذهب واحد وعدم الاستفادة من المذاهب الأخرى ، لأن عدم الالتزام هو الأصل والأيسر ، وقد أمر الله الذي لا يعلم أن يسأل من يعلم ، ولم يحدد واحداً معيناً كما بينا آنفاً ، وكذلك الالتزام إنما يكون بأقوال المعصوم ، ناهيك أن عدم الالتزام هو فعل الصحابة والسلف

٣ - لا يجوز السؤال إلا حين يعجز عن معرفة الدليل ، لأنه من السهل في كثير من الأحيان على بعض أذكياء العامة أن يعرف الحجة لوضوحها في النص الذي بين يديه ، وقد بين رسول الله ذلك أوضح بيان في حديث صاحب الشجة ، وفيه قوله ﷺ : « **ألا سألوا حين جهلوا فإنما شفاء العي السؤال** »[١٧٩] وكذلك بينته الآية الكريمة ﴿ **فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ فاشترطت عدم العلم لجواز السؤال ومن هذه النصوص استنبط العلماء القاعدة المشهورة « التقليد ضرورة » ، يلجأ له العامي والعالم عند الضرورة ، وحين لا يظفر بنص عن الله جل جلاله ورسوله ﷺ ، ولم يجد سوى قول من هو أعلم منه فيقلده اضطراراً ، وهذا أمر انتشاره بين العامة أكثر وأشهر ، لذلك درج على لسان العلماء قولهم التقليد للعامة : أي أغلب ما يكون في العامة ، ولهذا قال ابن تيمية رحمه الله : « والذي عليه جماهير الأمة : أن الاجتهاد جائز في الجملة ، والتقليد جائز في الجملة ، لا يوجبون الاجتهاد

---

(١٧٩) صحيح أخرجه أبو داود عن جابر . وأحمد وأبو داود والحاكم عن ابن عباس .

على كل أحد ويحرمون التقليد ، ولا يوجبون التقليد على كل أحد ويحـرمون الاجتهاد . وأن الاجتهاد جائز للقادر على الاجتهاد . والتقليد جائز للعاجز عن الاجتهاد .

فأما القادر على الاجتهاد ، فهل يجوز له التقليد ؟

هذا فيه خلاف والصحيح : أنه يجوز حيث عجز عن الاجتهاد إما لتكافؤ الأدلة . وإما لضيق الوقت عن الاجتهاد ، وإما لعدم ظهور دليل له ، فإنه من حيث عجز سقط عنه وجوب ما عجز عنه ، وانتقل إلى بدله وهو التقليد ، كما لو عجز عن الطهـارة بالمـاء ، وكذلـك العامي : إذا أمكنـه الاجتهاد في بعض المسائل ، جاز له الاجتهاد ، فإن الاجتهاد منصب يقبل التجزء والانقسام ، فالعبرة بالقدرة والعجز ، وقد يكون الرجل عاجزاً في بعض ، لكن القدرة على الاجتهاد لا تكون إلا بحصول علوم تفيد المطلوب ، فأما مسألة واحدة من فن فيبعد الاجتهاد فيها والله سبحانه أعلم »(١٨٠)

وقال ابن القيم : « وهذا فعل أهل العلم ، وهو الواجب فإن التقليد إنما يباح للمضطر ، وأما من عدل عن الكتاب والسنة وأقوال الصحابة وعن معرفة الحق بالدليل ، مع تمكنه منه إلى التقليد ، فهو كمن عدل إلى الميتة مع قدرته على المذكى ، فإن الأصل أن لا يقبل قول الغير إلا بدليل ، فجعل المقلدة حال الضرورة رأس أموالهم »(١٨١)

٤ ـ لا يجوز تتبع الرخص في المذاهب والعمل بها ، وهو ما يسمى بالتلفيق المذهبي

---

(١٨٠) مجموع الفتاوى (٢٠/٢٠٣ ـ ٢٠٤)
(١٨١) اعلام الموقعين (٢/٣٤٤)

ثانياً ـ اغلاق باب الاجتهاد

ادعى المقلدون أن الفقه نضج واحترق ، وشاع بينهم أن الاجتهاد انقضى وقته ، وأغلق بابه ، فقد عقمت أمة الإسلام أن تنجب مجتهدين ، ومن بحث في مؤلفات سعيد وجده يقول بإغلاق باب الاجتهاد حين ينقل رأي شيخه محمد الحامد مقرراً مثبتا قال « كان شيخنا الشيخ محمد الحامد رحمه الله **وهو الذي لم تقع العين على مثله ورعاً والتزاماً وإخلاصاً وتحقيقاً**[١٨٢] . بما ظهر له من حق كان شيخنا هذا رحمه الله من الذين يرون أن باب الاجتهاد قد أغلق في **هذه الأمة وهو موضوع تكلم فيه العلماء منذ عصور بسبب رؤيتهم تعذر وجود مجتهد يحيط باتجاهات العلماء بعد مسيرة كذا قرناً** »[١٨٣] .

إن السبب الذي أدى بالعلماء إلى إغلاق باب الاجتهاد شرحه سعيد زاعماً أن الوصول إلى مرتبه الاجتهاد أمر صعب ومستحيل ، وأندر من الكبريت الأحمر ، ووجود مجتهد مطلق يحيط باتجاهات العلماء أعز من عنقاء مغرب ، قال : « إننا مع التحقيق إذا أتى من أهله ، ومع الترجيح إذا أتى من أهله ، ومع الدليل إذا أحيط بمجموع الأدلة ، ولكن هذا لا يتأتى لإنسان ما لم يبدأ البداءة المعقولة . فيدرس الأحكام التي استقر عليها أئمة الاجتهاد ، ويدرس أدلتهم دراسة إتقان ، مع إتقانه لكل العلوم اللازمة للمقارنة والترجيح ، من علم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومعرفة العربية ووجوهها إلى غير ذلك ، ولكن هل يتأتى هذا لإنسان ؟ إنه إذا وجد في الجيل واحد من هذا النوع يكون عظيماً لأن فقه الحنفية حتى يهضم يحتاج إلى أربعين سنة فضلاً عن غيره »[١٨٤]

---

(١٨٢) رفقاً بشيخك يا أستاذ فقد قطعت عنقه ، قال ﷺ:« إيَّاكُمْ والتمادُح ؛ فإنه الذَّبْحُ » أخرجه ابن ماجة (٢/٤٠٧) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٢٨٤) . وسيأتي الحكم الشرعي في هذه المسألة قريباً إن شاء الله .

(١٨٣) جولات في الفقهين ص ٧٥

(١٨٤) جند الله ثقافة واخلاقاً ص (١٣٤ ـ ١٣٥)

ونتركه يجيب على السؤال الذي طرحه آنفاً بأسلوب أوضح ، لنقطع دابر الشك ، فيقول : « **ومن الصعب أن يكون الإنسان مجتهداً لكثرة الشروط التي يجب أن تتوافر في المجتهد ، فلم يبق أمام أكثر الخلق الا أن يتفقهوا على مذهب إمام مجتهد** ، وأن يستفتوه في المسائل والحوادث وذلك واجب شرعي كيلا يسير الإنسان على غير بصيرة وهذا الذي يجعل الأمة تستقر على المذهبيا الفقهية »(185)

إذا جمعنا بين أقواله هذه وإقراره رأي شيخه في موضوع الاجتهاد علمنا أنه يقول بإغلاق باب الاجتهاد ، وإن حاول كثيراً أن يخفيه وراء أقواله الغامضة ، وينجو من مناقشته بالألفاظ العامة ، إلا أن ذلك لا يخفى على المحقق المنصف ، فهو يعتقد استحالة وجود مجتهد للأسباب التالية :

أ ـ تعذر وجود إنسان يحيط بمذاهب الأقدمين فمذهب الحنفية يحتاج إلى أربعين سنة وكذلك المذاهب الباقية ، وهذا يعني أن فهم المذاهب الأربعة وهضمها يحتاج إلى مئتي سنة إلا أربعين عاماً ووجود إنسان يعمر هذه الفترة مستحيل إذا علمنا أن **أعمار أمة محمد ﷺ بين الستين والسبعين** كما أخبر الصادق الأمين ﷺ* .

ب ـ ولو فرضنا جدلا وجود مثل هذا الإنسان فإنه لن يتبوأ منزلة الاجتهاد ، لأن شروط الاجتهاد التي يجب أن تتوفر في المجتهد كما قررها المقلدون يستحيل الإحاطة بها كلها ، وفي هؤلاء المقلدة يصدق المثل العامي المنتشر في بلاد الشام «**إلْلي ما بدو يجَوِزْ بنتُه بِغلّي مَهرْها** » .

---

(١٨٥) جولات في الفقهين ص ٧١

* قال صلى الله عليه وسلم « أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين ، وأقلهم من يجوزُ ذلك » أخرجه الترمذي عن أبي هريرة ، وصححه الألباني (٧٥٧)

إن فقدان مجتهد يقتضي أن تعكف الأمة على اجتهـادات الأقدمـين، وتستقر على المذهبية الفقهية ، وتجتر ما ألفه الأئمة الأربعة رحمهم الله تعالى ، وهذا الذي ينطق به سعيد حوى .

إن هذه الدعوى الخطيرة التي شاعت بين الفقهاء المتأخرين ، وذاعت لدى المتمذهبين المقلدين باطلة من أصلها ، وفاسدة من العميق العميق من جذورها ، للأسباب التالية :

١ - إن الحجة التي يتذرع بها مغلقو باب الاجتهاد تحمل في طياتها ادعاء علم الغيب ، فهم يقولون : إنه لم يوجد من يصلح للاجتهاد بعد القرن الرابع الهجري ، وزعموا أن المجتهد المطلق قد فقد[١٨٦] ، وأن الأرض خلت من قائم لله بحجة ولن يوجد إلى يوم القيامة ﴿ **إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ[٦٨] قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ[٦٩]** ﴾ يونس

٢ - إن الاجتهاد أمر شرعه الله ، وأرشد إليه وجعله رابـع أدلة الهـدى : الكتاب ، السنة ، الإجماع ، القياس ، وهو أهم شعب الاجتهاد .

٣ - إن الاجتهاد حث عليه النبي ﷺ وبشر المجتهد بالأجر سواء أصاب أم أخطأ ، قال ﷺ : (**إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر**)[١٨٧] أما المقلدة فبشروا من حاول الاجتهاد بالثبور ، وعظائم الأمور .

٤ - لا يجوز لأي مخلوق إغلاق بابه الذي فتحه الله ، ويحجر واسع رحمته

---

(١٨٦) الدر المختار ، ابن عابدين (١/٤٥ - حاشية)
(١٨٧) متفق عليه

سبحانه وتعالى ، ويضيق سابغ فضله عز وجل ، قال ﷺ : **(إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجددلها دينها)**(١٨٨)

٥ ـ إن واقع الأمة الإسلامية يرد هذه الدعوى على عقبيها ، فإن المجتهدين لم تنقطع سلسلتهم الذهبية ، فقد رأينا كثيراً من النوابغ والعلماء في عصور الجمود والانحطاط لا يقلون عن الأئمة الأربعة ، علماً ، وفضلاً ، واجتهاداً ، وذكاءً ، وإخلاصاً ـ أحسبهم كذلك ولا أزكي على الله أحدا ـ وما خبر ابن حزم ، وابن عبد البر ، والشاطبي ، والنووي ، وابن عبد السلام ، وشيخ الإسلام ابن تيمية ، وابن دقيق العيد ، وابن القيم ، وابن كثير ، وابن الوزير رحمهم الله جميعا عنا ببعيد ، إن الأمة الاسلامية أمة مرحومة ولن ينقطع الخير عنها ولن تصاب بالعقم قال ﷺ:**(مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره)**(١٨٩) ولن تخلو الارض من قائم لله بحجة ولو كره المقلدون ، **قال ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق . . . الحديث)**

٦ ـ ولو فرضنا صحة القول الذي دعا أصحاب المذاهب إلى إغلاق باب الاجتهاد ، فهو مُنْصَبٌ على تصور أن الاجتهاد لا يتجزَّأ ، وعبروا عنه بالمجتهد المطلق الذي يحيط باتجاهات المذاهب بعد مسيرة بضعة قرون .

وهذا تصور غير صحيح لأن الاجتهاد مَنْصِب يتجزأ ، وهو مراتب ، وإليك مراتب المجتهدين .

أ ـ المجتهد المطلق : وهو من استقل بمعرفة الأحكام بغير تقليد وتقيد بمذهب من المذاهب(١٩٠) . ووجه تسميته لأنه غير مقيد بمذهب معين ، ومثال

---

(١٨٨) صحيح أخرجه أبو داود والحاكم والبيهقي والخطيب

(١٨٩) أخرجه الترمذي وحسنه ، وصححه الألباني في تعليقه على المشكاة

(١٩٠) المجموع (٧٦/١) طبعة نجيب المطيعي

ذلك الأئمة الأربعة رحمهم الله تعالى جميعاً ومن كان في درجتهم كالأوزاعي ، والثوري ، والطبري وغيرهم من كبار تلاميذ الأئمة الأربعة رحمهم الله تعالى جميعاً ومما هو جدير بالذكر أن المجتهد المطلق قد يكون مستقلاً ، وقد يكون منتسباً .

ب ـ المجتهد الخاص ، وهو المجتهد في نوع من العلم ، أو في باب من أبواب الفقه [١٩١] .

جـ ـ مجتهد المسألة : من الصواب المقطوع به جواز تجزئة الاجتهاد[١٩٢] لذلك قد يكون المجتهد في مسألة دون غيرها من باب معين من أبواب الفقه ، وذهب إلى ذلك ابن القيم رحمه الله تعالى فقد قال « فإن قيل : فما تقولون فيمن بذل جهده في معرفة مسألة أو مسألتين هل له أن يفتي بهما ؟ قيل : نعم يجوز في أصح القولين ، وهما وجهان لأصحاب الإمام أحمد ثم قال رحمه الله : وهل هذا إلا من التبليغ عن الله وعن رسوله وجزى الله من أعان الإسلام ـ ولو بشطر كلمة ـ خيراً ، ومنع هذا من الإفتاء بما علم خطأ محض »[١٩٣]

وهناك أنواع من الاجتهاد اختلف فيها العلماء اختلافاً كثيراً أعرضنا عن ذكرها مثل المجتهد الملفق ، ولكن فيما ذكر تبيان للغرض .

شروط الاجتهاد

اختلف العلماء في شروط المجتهد بين متشدد في الشروط ، بحيث لا تنطبق شروطه إلا على الأئمة الأربعة رحمهم الله تعالى ، لأنهم ينظرون إلى

---

(١٩١) اعلام الموقعين (٤/٢١٦)

(١٩٢) انظر إرشاد الفحول ص ٢٢٥ ، والأحكام للآمدي (٤/١٦٤) طبعة مؤسسة النور ـ السعودية .

(١٩٣) اعلام الموقعين (٤/٢١٦ ـ ٢١٧)

الاجتهاد على أنه شيء مخيف ومرعب لا يمكنهم أن يتصوروه ، ومتساهل مخفف يرى أن لكل إنسان الحق في الاجتهاد ، وقد ذهب سعيد إلى القول المتشدد المتعنت ، فقد اشترط على المجتهد أن يحيط بعلوم كثيرة ، كعلوم الآلة : من نحو ، ولغة ، وبلاغة ، وعلوم الشريعة : من تفسير ، وحديث ، وفقه ، وعلوم القرآن ، والإحاطة الكاملة بمذاهب الأقدمين[١٩٤] ، وهذا القسم من المقلدين قرروا في أنفسهم مسبقاً إغلاق باب الاجتهاد إلا أنهم قالوا للناس لا مانع لدينا من وجود مجتهدين إذا استطاعوا تحصيل هذه الشروط ، وهم يعلمون أنه ليس ذلك بالإمكان .

وعندنا أن هذا تشدد وإلزام بما لا يلزم . لأن الاجتهاد ميسور لمن كانت عنده أهلية الخطاب وفهم أدلة ما يحتاجه من الوحيين ، وخاصة إذا استعان بما ألفه العلماء .

إن الله تعالى لم يجعل علينا في الدين من حرج ، فقد وصف كتابه ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرنَا ٱلْقُرآنَ لِلذِّكرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكر ﴾[١٩٥] وقال ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[١٩٦] ورسولنا ﷺ المبعوث رحمة للعالمين يأمرنا في الحديث الصحيح المتفق عليه قائلاً : (يسروا ولا تعسروا)

ولو فرضنا صحة وجوب توافر الشروط الآنفة في حق المجتهد ، فإن اجتماعها يشترط في حق المجتهد المطلق ، وهذا ما استحسنه الغزالي رحمه الله وقرره في كتابه القيم المستصفى . ومن المعلوم أن الاجتهاد منصب يقبل التجزئة والانقسام ، وعليه فإن الشروط يجب أن تتلائم مع كل مرتبة ، فشروط المجتهد المطلق ليس كشروط المجتهد الخاص أو مجتهد المسألة .

---

(١٩٤) جند الله ثقافة واخلاقاً ص ١٣٤

(١٩٥) القمر : ١٧

(١٩٦) الشعراء ١٩٥

ثالثا ـ من ثمارهم تعرفونهم

لو وقف أمر المذهبية عند إغلاق باب الاجتهاد ، ووجوب التقليد لهان الأمـر ، ولكنهم زادوا الطين بلَّة ، والـراء علَّة ، عندمـا دعوا إلى التعصب للمذهب ، والتشكيك في جهود العلماء المسلمين على مر العصور ، ونزع الثقة عن فتاويهم التي ملأت خزائن العلم ، والسبب لأنهم لم يرضوا بالمذهبية ديناً ومذهباً ، قال سعيد : « إنه لا اطمئنان في شأن الفتوى إلا على مذهب من هذه المذاهب الأربعة لأن قواعدها وأصولها وفروعها كلها محفوظة منقولة فإذا أراد الإنسان أن يتعرف على حكم فإنـه يستطيـع ذلك لأن كـل حيثيات الأمـور منضبطة ، أما المذاهب الأخرى فهي منقولة في الكتب عن أئمتها ، ولكن لا يعرف ما إذا كان للقول المنقول حيثيات أخرى عند صـاحب المذهب لجـواز الإفتاء بهذا القول هذا عدا عن كون المذاهب الأربعة لها قواعدها الأصولية في الاستنباط محفوظة وموجودة وبذلك يستطيع الإنسان أن يتعرف ويطمئن وعلى ضوء قناعة بأصول إمام يستطيع أن يتبنى مذهبه ويطمئن إلى فتواه وهذا غير متوفر على كماله إلا في المذاهب الأربعة تقريباً .

وبجانب المذاهب الفقهية الأربعة لأهل السنة كان يوجد أهل الحديث وقريب منهم مذهب الظاهرية ولكن أهل الحديث لم يشكلوا في يوم من الأيام مذهباً ، بل أكثرهم كانت لهم مذاهبهم الفقهية وفي الغالب لهم تحقيقات . . . ونستطيع أن نقول إن المذهب الظاهري ما خرج عن ذلك لأن المذهب حتى يعتبر مذهباً ـ لا بد أن يكون فيه جواب على كل سؤال . . . »[197]

إن التقوقع داخـل جدران المـذاهب الأربعة ، تضييـع لجهود علماء

---

(١٩٧) جولات في الفقهين ص (٧٠ ـ ٧١)

جهابذة ، وإهدار لتراث فقهي ضخم ، وتنكر لنتاج عبقريات فذة ، لا لسبب معقول ، ولا دليل منقول ، إلا أن هؤلاء ليسوا على مذهب من هذه المذاهب .

ما المانع من التفتح على العلماء جميعاً والاستفادة من علمهم وفقهم ؟ أليسوا كلهم ذخراً للمسلمين جميعاً ؟

ان هذه الدعوى تفرق جماعة المسلمين ، وتجعلهم كمن قال الله فيهم : ﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾

أما قول القائل إن هذه المذاهب أصولها محفوظة منقولة ، وغيرها ليس مثلها ، فهذا لا يبرر عدم الأخذ بها ، والاطمئنان إليها بعد ثبوت صحتها عنهم ، وكونها لم تحرر في كتب مستقلة فسببه أنها لم تقم للانطواء على نفسها ، والتعصب لأقوالها دون برهان . ناهيك أن السياسات المستبدة لعبت دوراً في بقاء مذاهب وانطماس معالم أخرى ، فبني العباس هم الذين مكنوا لمذهب أبي حنيفة رحمه الله تعالى ونشروه ، وبني أمية استحسنوا مذهب مالك رحمه الله تعالى وأقروه ، قال العلامة ابن خلدون رحمه الله تعالى : « وأما أبو حنيفة فقلده أهل العراق ومسلمة الهند والصين وما وراء النهر وبلاد العجم كلها ، لما كان مذهبه أخص بالعراق ودار السلام ، وكان تلميذه صحابة الخلفاء من بني العباس فكثرت تآليفهم ومناظراتهم مع الشافعية »(١٩٨) وقال ابن حزم رحمه الله : « مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرئاسة والسلطان : الحنفي بالمشرق والمالكي بالأندلس »(١٩٩)

---

(١٩٨) مقدمة ابن خلدون ص ٤٤٨ طبعة دار القلم ، بيروت ـ لبنان

(١٩٩) نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الأربعة وانتشارها ، لأحمد تيمور ص ٩ .

رابعاً ـ علم الكلام

لم يقتصر سعيد على الدعوة إلى التقليد والاشتغال بالمتون ، بل ذهب الى عدم الاقتصار على أدلة القرآن والسنة في العقيدة بل لا بد من استخدام أدلة علماء الكلام الجافة الباهتة ، وبدأ يرغب المسلمين فيه ويصفه وصفاً بعيداً عن الحقيقة ، فيقول عنه : « ومن أجل الضوابط الدقيقة لعلم العقائد ، وجد علم المنطق الإسلامي ، بعد تطويره عن المنطق اليوناني »(٢٠٠) ، ويزعم أنه يعصم العقل من الخطأ في باب العقائد(٢٠١)

إن أئمة السلف رحمه الله تعالى نهوا عن علم الكلام ، وحذروا منه ، واتفقوا على ذمه .

قال أبو يوسف تلميذ أبي حنيفة رحمهما الله : « من طلب الدين بالكلام فقد تزندق »(٢٠٢)

قال الشافعي رحمه الله تعالى : « حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ويطاف بهم في العشائر والقبائل ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام »(٢٠٣)

ويصفهم الإمام أحمدرحمه الله تعالى:« إنهم أهل بدع ، وهم مختلفون في الكتاب ، مخالفون للكتاب ، متفقون على مفارقه الكتاب ، يتكلمون بالمتشابه من الكلام ، ويخدعون جهال الناس بما يلبسون عليهم »(٢٠٤)

---

(٢٠٠) جولات في الفقهين ص ٤٨
(٢٠١) المصدر السابق ص ١١٨
(٢٠٢) أخرجه الخطيب في شرف اصحاب الحديث ص ٥ . وانظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٧٢
(٢٠٣) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ، طـ ٤ المكتب الاسلامي ص ٧٢
(٢٠٤) موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ، ابن تيمية طـ القاهرة سنة ١٩٥١ ، تحقيق محمد عبد الحميد ومحمد الفقي (١/٢٣) . وراجع مقدمة كتابه « الرد على الزنادقة والجهمية »

وقد تنبه الأستاذ سيد قطب رحمه الله إلى خطورة علم الكلام ، وأنه يفسد العقيدة ، فقال : « وما كان الجدل الكلامي الذي ثار بين علماء المسلمين حول هذه التعبيرات القرآنية . إلا آفة الفلسفة الإغريقية والمباحث اللاهوتية عند اليهود والنصارى عند مخالطتها العقلية العربية الصافية وللعقلية الإسلامية الناصعة ، وما كان لنا نحن اليوم أن نقع في هذه الآفة ، فنفسد جمال العقيدة وجمال القرآن بقضايا علم الكلام »(٢٠٥)

نعم إن علم الكلام أفسد العقيدة الإسلامية ، وكبل العقول عن الهدى لأنه حثالة المنطق اليوناني ، ولعل هذه الحقيقة التي لم يستطع سعيد حوى إنكارها ، فقال : « إنه نتيجة عن وجود شيء اسمه الحكم العقلي نشأ علم المنطق الإسلامي الذي بني على المنطق اليوناني وانفرد عنه »(٢٠٦)

وقد نقض ابن تيمية رحمه الله تعالى عرى المنطق عروة عروة في كتابيه « نقض المنطق » و « الرد على المنطقيين » ناهيك أنه لا تكاد تخلو صفحة واحدة في كل ما كتب وصنف من نقدهم ، وتحذير الناس من شرورهم ،حتى إنه يعتبرهم أخطر على الأمة من أعدائها ، فإذا علمنا ذلك ، فعجب زعم سعيد حوى أن ابن تيمية رحمه الله تعالى يبارك المنطق ، ويتخذه سبيلاً(٢٠٧) .

ومالنا نذهب بعيداً وهاهم أولاء علماء الكلام أنفسهم قد رجعوا عن حججهم الكلامية ، وتابوا عنها ، واعترفوا بضلالها وشهدوا على أنفسهم ، وأعلنوا أن علم الكلام ﴿ **كَسَرابٍ بِقيعَةٍ يَحْسَبُه ٱلظَّمـْئَانُ ماَءً حَتَّىٰ إذا جَآءهُ لَمْ يَجِدهُ شَيْئاً** ﴾(٢٠٨)

---

(٢٠٥) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، طـ الرابعة ، دار العربية ـ لبنان (١/ ٦٠ ـ ٦١)
(٢٠٦) جولات ص ٥٤
(٢٠٧) المصدر السابق ص (١٢ ـ ١٣)
(٢٠٨) النور : ٣٩

وسنختار من بينهم بعض العلماء الذين عرفوا في أوساط المتكلمين ، وأشار إليهم بالبنان أكثر الباحثين .

أبو الحسن الأشعري رحمه الله تعالى : رأس المذهب المنسوب إليه زوراً وظلماً ، كان أحد رؤوس الاعتزال تتلمذ على أبي علي الجبائي ، ثم استبانت له سبيل الهدى ، فصعد كرسيه بالجامع وأعلن توبته ، وانخلع من جميع ما كان يعتقد ، كما ينخلع من ثوبه ، يقول ابن خلكان رحمه الله تعالى: « وانخلع من ثوب كان عليه ، ودفع للناس ما كتبه على طريقة الفقهاء والمحدثين »[٢٠٩]

يومئذ نهج الأشعري رحمه الله تعالى سبيل السنة ، واعتصم بمذهب أهل الحديث ، وبدأ يدافع عنه بالحجة والدليل في مصنفاته التي ألفها لنصرة مذهبهم ، وبيان صحة معتقدهم ، وأنه لا يرده إلا من كان في قلبه زيغ ، وفي عقيدته إحنة .

وله في ذلك بضعة كتب هي : الإبانة ، رسالة إلى أهل الثغر بباب الأبواب ، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، صرح فيها أنه على مذهب أهل الحديث وإمامهم - وقتئذ - الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله .

قال رحمه الله : « قولنا الذي نقول به ، وديانتنا التي ندين بها ، التمسك بكتاب ربنا عز وجل ، وبسنة نبينا ﷺ ، وما روى عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان يقول به أبو عبدالله أحمد ابن محمد بن حنبل - نضر الله وجهه ورفع درجته ، وأجزل مثوبته - قائلون ولمن خالف قوله مجتنبون ، لأنه الإمام الفاضل ، والرئيس الكامل ، الذي أبان

---

(٢٠٩) وفيات الأعيان ، ابن خلكان ، طبعة السعادة ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد سنة ١٩٤٩ . (٢/٤٤٦ - ٤٤٧) ، وقصة توبته ذكرها أيضاً ابن النديم في الفهرست .

الله به الحق ، ودفع به الضلال ، وأوضح به المنهاج ، وقمع به بدع المبتدعين وزيف الزائفين وشك الشاكين . . . »[٢١٠]

وقال بعد أن ذكر مقالة أهل السنة وأصحاب الحديث وشرح جملة قولهم : « فهذا جملة ما يأمرون به ويستعملونه ويرونه ، وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول وإليه نذهب ، وما توفيقنا إلا بالله »[٢١١]

هذا هو منهج الأشعري ، فهو يثبت طريقة السلف والمحدثين ، بل كان مذهبه في ذلك هو ما ذهب إليه الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى ، وما نطق به الكتاب والسنة .

ولعل هذا البيان يدحض زعم سعيد حوى الذي قال : « وسلمت الأمة في قضايا العقائد لاثنين أبو الحسن الأشعري وأبو منصور الماتريدي »[٢١٢] وذلك ليبرهن صحة مذهب متأخري الأشاعرة الذين لم يكن لهم من مذهب الأشعري الآنف إلا الاسم بينما معدنهم الإعتزال ، وديدنهم التأويل .

ورب قائل : إنه أراد ما بينته من مذهب الأشعري ولمثل هذا يقال : لو أراد ما قلته وبينته ، لما تأخر في التصريح باسم الإمام أحمد ، الذي لم يستنكف الأشعري نفسه في اتباع منهجه ، وإعلان ذلك على رؤوس الأشهاد ، بل حصر إمامة أحمد بن حنبل في الفقه فقط .

كذلك يقرر صحة مذهب متأخري الأشاعرة الذين نفوا صفات الأفعال[٢١٣] ، وأولوا الصفات الخبرية ، فأثبت سبعاً من صفات الله نسجاً

(٢١٠) الإبانة عن أصول الديانة ، الأشعري ، طبعة الجامعة الاسلامية ـ المدينة المنورة ، ص ٨

(٢١١) مقالات الإسلاميين ، الأشعري ص (٢٩ ـ ٩٧) نشرة رتر

(٢١٢) جولات ، صفحات ٢٢ ، ٦٦ ، ٨١ ، ٩٠

(٢١٣) أنظر الفرق بين الفرق ص ٣٣٨ طبعة المدني نشرة صبيح حيث صرح البغدادي وهو أشعري بذلك فقال : « إن كل صفة اشتقت من فعله تعالى كالخالق والرازق والمحيي والمميت لم يكن الله موصوفاً بها أزلاً »

على منوالهم ، واستحساناً لأقوالهم فقال : « في علم العقائد عادة تعرض مسائل الاعتقاد وتعرض الأدلة عليها وتذكر عادة أمهات الأمور التي وقع فيها الخلاف بين أهل السنة والجماعة وغيرهم ولا يشار إلى الجانب الذوقي العاطفي والشعوري والتحققي والطريق إلى ذلك إلا لماماً فمثلاً يعرض في علم العقائد أن الله عز وجل متصف بالسمع والبصر والكلام والإرادة والقدرة والحياة والعلم »[٢١٤] .

وقد حاول بعض الباحثين وخاصة المستشرقين التشكيك في نسبة الإبانة للأشعري ، قال الدكتور عبد الرحمن بدوي : « إننا نشك كثيراً في صحة نسبة الإبانة عن أصول الديانة إلى أبي الحسن الأشعري كما أشرنا إلى ذلك من قبل عند الكلام عنها »[٢١٥] .

الحقيقة أن الإبانة صحيحة النسبة إلى الأشعري وخاصة إذا علمنا أن سبب التشكيك فيها ورود مدح الإمام أحمد رحمه الله تعالى ، والقول بمذهب أهل الحديث ، حيث يعتقد الدكتور الفاضل ومن حذا حذوه ، ونحا نحوه وسلك منهجه أن الأشعري رحمه الله أربأ من أن يعتقد هذه العقيدة الساذجة البسيطة البعيدة عن تعقيدات أهل الكلام وفلسفتهم ، يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي : « فإن عقيدة الأشعري أكثر تدقيقاً وأشد تركيباً من هذه العقيدة البسيطة التي لا تتجاوز عقيدة ابن حنبل ، فأين مذهب الأشعري في الصفات ؟ وأين قوله بالكسب . . . فهل يعقل أن يتخلى الأشعري عن كل

---

(٢١٤) تربيتنا الروحية ص (٦٢ - ٦٣) . والأشاعرة فرقوا بين نوعين من الصفات ، فأثبتوا الصفات العقلية وهي المذكورة ، ونفوا صفات الأفعال كما ذكرنا عن البغدادي وقد بين تهافت أدلتهم ابن تيمية قديماً في رسالته الإكليل وحديثاً العلامة محمد الأمين الشنقيطي في رسالته منهج ودراسات الآيات الأسماء والصفات .

(٢١٥) مذاهب الإسلاميين (١/٥٣٣) ، طبعة دار العلم للملايين

مباحثة الكلامية ومناظراته وتدقيقاته ويقتصر على هذه العقيدة الساذجة الأولية ؟ ! »[٢١٦]

نعم يعقل أن يرجع الأشعري رحمه الله عن الاعتزال جملة وتفصيلاً وهذا ثابت بالرواية الصحيحة المتصله التي سنوردها إن شاء الله فقد كان رحمه الله أواباً إلى الحق لم يمنعه الغرور أن يقول كلمة الحق ولو على نفسه ، فإن الرجوع إلى الحق فضيلة ، والاعتراف بالخطأ شجاعة ، وما أهون ذلك على النفوس المؤمنة التي لم يقتحم الغرور أسوارها العالية ، ولم يخرق أبوابها المنيعة .

إن قولك« ربما كانت هذه العبارة مقحمة مزورة ، ليست من قول الأشعري ، وربما يكون قد أقحمها بعض الأشاعرة المتأخرين الذين قربوا أو وحدوا بين مذهب ابن حنبل وبين مذهب الأشعري »[٢١٧] تخمين فهو بالردقمين ، وحسبك أنك لم تورد أدلة وأنت تعلم ـ رحمك الله ـ أن القول لا يستقيم أمره إلا إذا أسس على أدلة ، لأنها برهان الصدق ، ومعالم الحق ، قال تعالى:﴿ **قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين** ﴾ .

وإليك أيها القارىء أدلتنا لإثبات صحة نسبة الإبانة لمصنفه رحمه الله .

١ ـ ثبوت رجوع الأشعري إلى مذهب السلف ، وانخلاعه من الاعتزال ، وهذا أمر ذكرته كتب التاريخ كما ذكرنا في أول كلامنا عن الأشعري . وكذلك فقد جزم بذلك علماء المسلمين مثل ابن بدران الدمشقي رحمه الله في المدخل إلى مذهب أحمد ص ٧ ، وكذلك ابن تيمية رحمه الله في منهاج السنة (٤/١٤٥) ، وموافقة صحيح المنقول لصريح المعقول .

---

(٢١٦) المرجع السابق (١/٥٣١)
(٢١٧) المرجع السابق نفسه (١/٥٣١)

إذن فلا بد أن تطفح كتبه التي صنفها في هذه الفترة دفاعاً عن أهل السنة بذكر مآثر أهل الحديث ، وبيان معتقدهم ، ومن المعلوم أن الإبانة والمقالات ورسالة أهل الثغر صنفت في هذه الفترة الأخيرة من حياته(٢١٨) ، فلقد مات رحمه الله على معتقد أصحاب الحديث ، قال أبو القاسم القشيري في شكاية أهل السنة سمعت أبا علي الدقاق يقول :«سمعت زاهر بن أحمد الفقيه يقول : مات الأشعري رحمه الله ورأسه في حجري فكان يقول شيئا في حال نزعه [من داخل حلقه ، فأدنيت إليه رأسي ، وأصغيت إلى ما كان يقرع سمعي ، فكان يقول] : لعن الله المعتزلة موهوا ومخرقوا »(٢١٩) وجزم بصحة هذه العبارة وثبوت نسبتها أكابر الأشاعرة مثل ابن فورك(٢٢٠).

٢ ـ ذكر جماعة من العلماء الإبانة ، ونقلوا عنه ، منهم : الحافظان الشافعيان أبو بكر البيهقي في كتابه «الاعتقاد» ، وأبو القاسم بن عساكر في «تبيين كذب المفتري» رحمهما الله تعالى .

وقد اعترف ابن عساكر رحمه الله بالإبانة ودافع عنه ، ونقل منه ، فقال في ص « ١٥٢ » : « فإذا كان أبو الحسن رضي الله عنه كما ذكرنا عنه من حسن الاعتقاد مستوصب المذهب عند أهل المعرفة بالعلم والانتقاد يوافقه في أكثر ما يذهب إليه أكابر العباد ولا يقدح في معتقده غير أهل الجهل والعناد فلا بد أن نحكي معتقده على وجهه الأمانه ونجتنب أن نزيد فيه أو ننقص منه تركاً للخيانه ليعلم حقيقة حاله في صحة عقيدتة في أصول الديانة فاسمع ما ذكره في أول

(٢١٨) أنظر القائد إلى تصحيح العقائد ، عبد الرحمن المعلمي ، الطبعة الثانية ـ المكتب الإسلامي ص ١٧٦

(٢١٩) أنظر مختصر العلو للعلي الغفار للحافظ الذهبي ، تحقيق الالباني ص ٢٤٠ طبعة المكتب الإسلامي . وطبقات الشافعية للسبكي (٢/٢٧٥ ـ ٢٨٨) القاهرة ـ المطبعة الحسينية

(٢٢٠) المصدر السابق ص ٢٣٩

كتابه الذي سماه بالإبانه . . ثم ذكر كلاماً طويلاً من الإبـانه وقـال في نهاية النقل : « فتأملوا رحمكم الله هذا الاعتقاد ما أوضحه وأبينه واعترفوا بفضل هذا الإمام العالم الذي شرحة وبينه » اهـ

وكـذلك الحـافظ الذهبي رحمـه الله جزم بنسبـة الإبانـه إلى الأشعري فقال : « وكتاب الإبـانه من أشهـر تصانيف أبي الحسن ، شهـره الحافظ ابن عساكر واعتمد عليه ، ونسخه بخطه الإمام محيي الدين النووي »[٢٢١] .

هؤلاء العلماء نقـاد الأسانيـد ، وجهابـذه العلم ، أثبتوا صحـة نسبة الكتاب إلى الأشعري .

٣ ـ إن هذه الفقرة التي دعت إلى الشك في الكتاب توجد أشباهها في كتبه الأخرى التي لا يشك في أمرها بـاحث ، وذلك كـالمقالات ، ورسـالة أهـل الثغر ، ففي المقالات صرح قائلا : « وبكل ما ذكرنا من قولهم ـ أي أهـل الحديث ـ نقول ، وإليه نذهب » ، وكتب رسالة أهل الثغر ليبين للناس أن هذا هو طريق الكتاب والسنة .

وقد قامت الدكتورة فوقية حسين بتحقيق الإبانة ، وقدمت له بمقدمـة ردت فيها على من شكك في نسبتها إلى الأشعـري ، فأحسنت الـرد وفندت الشبهات .[٢٢٢]

---

(٢٢١) مختصر العلو للعلي الغفار ص ٢٣٩

(٢٢٢) انظر الإبانة عن أصول الديانة ، الاشعري ، تقديم وتحقيق وتعليق د ـ فوقية حسين (١ /٧٤ ـ ٨٠)

الأب والابن

ركب إمام الحرمين أبو المعالي الجويني ووالده عبد الله بن يوسف الجويني رحمهما الله مركب التأويل ، ومخروا عباب بحر الكلام ، حتى إذا عقدت لهم الإمامة وأصبحوا مهوى أفئدة طلبة العلم ، ثارت رياح الحيرة ، وبدأ الشك ينهش قلوبهم الباحثة عن الحقيقة ، فارتدا على أعقابهم القهقرى ، ووجدا أنهما انتهيا من حيث بدءا ، وشرعا في نقض عرى علم الكلام ، وتحذير الأمة من هذا التيار .

أما الوالد فقد كان برهة من الدهر متحيراً بسبب تأثره بعلم الكلام الذي رضعه من شيوخه ، ثم استقر أمره على عقيدة السلف ، وبين ذلك هو نفسه في رسالته في إثبات الاستواء والفوقيه ، وقد وردت كاملة في مجموعة الرسائل المنيرية (١/ ١٧٤ - ١٨٧) ، ثم طبعها المكتب الإسلامي تحت عنوان « النصيحة في صفات الرب جل وعلا » ونسبها للشيخ أحمد بن ابراهيم الواسطي الشافعي المعروف بابن شيخ الحزاميين ، ولعلها غفلة تداركها المكتب في الطبعات الأخيرة .

ومما ورد فيها : « اعلم أنني كنت برهة من الدهر متحيرا في ثلاث مسائل : مسألة الصفات ، مسألة الفوقية ، مسألة الحرف والصوت في القرآن المجيد ، وكنت متحيرا في الأقوال المختلفة الموجودة في كتب أهل العصر . . . ثم أجد المتأخرين من المتكلمين في كتبهم منهم من يؤول الاستواء بالقهر والاستيلاء . . . وممن ذهب إلى هذه الأقوال وبعضها قوم لهم في صدري منزلة مثل طائفة من فقهاء الأشعرية الشافعيين لأني على مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه عرفت فرائض ديني وأحكامه فأجد مثل هؤلاء الشيوخ الأجلة يذهبون

إلى مثل هذه الأقوال وهم شيوخي ولي فيهم الاعتقاد التام لفضلهم وعلمهم ثم إنني مع ذلك أجد في قلبي من هذه التأويلات حزازات لا يطمئن قلبي إليها وأجد الكدر والظلمة منها وأجد ضيق الصدر وعدم انشراحه مقروناً بها فكنت كالمتحير المضطرب في تحيره المتململ من قلبه في تقلبه وتغيره .

وكنت أخاف القول بإثبات العلو والاستواء والنزول مخافة الحصر والتشبيه ومع ذلك فإذا طالعت النصوص الواردة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ أجدها نصوصا تشير إلى حقائق هذه المعاني . . . ثم يسرد الآيات والأحاديث ويعلن عن استقراره على مذهب السلف ص (١٨١) قائلا :«إذا علمنا ذلك واعتقدناه تخلصنا من شبه التأويل وعماوة والتعطيل وحماقة التشبيه والتمثيل »[٢٢٣]

وأما الابن فما أشبه حالته بحالة أبيه ، فقد بلغ النهاية في علم الكلام ، أنظر إليه يتكلم عن نفسه : « قرأت خمسين ألفاً في خمسين ألفاً ، ثم حلبت أهل الإسلام بإسلامهم فيها وعلومهم الظاهرة ، وركبت البحر الخضم ، وغصت في الذي نهى أهل الإسلام عنه ، كل ذلك في طلب الحق » إلا أنه لم يجده شيئا فيقلع عنه ، ويندم على ما فات قائلاً : « والآن رجعت من العمل إلى كلمة الحق عليكم بدين العجائز فإن لم يدركني الحق بلطفه وأموت عل دين العجائز ، وتختم عاقبة أمري على الحق وكلمة الإخلاص ، وإلا فالويل لابن الجويني »[٢٢٤] وإليك هذا الاعتراف المسلسل إسناده بالحفاظ وقد صح إلى منتهاه « قال الحافظ الحجة عبد القادر الرهاوي سمعت عبد الرحيم بن أبي الوفا

---

(٢٢٣) مجموعة الرسائل المنيرية ، الرسالة الثامنة في إثبات الاستواء والفوقية للجويني .

(٢٢٤) شذرات الذهب ، (٣/٣٦١ ـ ٣٦٢)

الحاجي يقول : سمعت محمد بن طاهر المقدسي يقول : سمعت الأديب أبا الحسن القيرواني بنيسابور يقول - وكان يختلف إلى دروس الأستاذ أبي المعالي الجويني يقرأ عليه الكلام - يقول : سمعت الأستاذ أبا المعالي اليوم يقول : « يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام ، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي ما بلغ ما اشتغلت به »(٢٢٥)

هذه الحيرة التي عصفت بابن الجويني رحمه الله قادته إلى ترك علم الكلام ، والاستقرار على مذهب السلف ؛ الذي سطره واعتصم به ، ودافع عنه في العقيدة النظامية .

توبة نصوح

وهذه اعترافات أقطاب علم الكلام تترى وإنها لخير دليل يشهد بالحق وفصل الخطاب أن علم الكلام والمنطق يشوه العقيدة ، ويفسد القلوب ، ويعصم العقول عن الهدى .

قال أبو الفتح القشيري وهو العلامة ابن دقيق العيد رحمه الله تعالى .

تجاوزت حد الأكثرين إلى العلا وسافرت واستبقتهم في المفاوز
وخضت بحاراً ليس يدرك قعرها وسيرت نفسي في قسيم المفاوز
ولججت في الأفكار ثم تراجع اخـ تياري إلى استحسان دين العجائز*

وقال عبد الله الرازي رحمه الله كما نقل عنه ابن خلكان رحمه الله في وفيات الأعيان

نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعي العالمين ضلال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقال

(٢٢٥) أنظر مختصر العلو للعلي الغفار ص ٢٧٥

* معنى قول بعض الأئمة عليكم بدين العجائز واستحسانهم لهذه المقولة التي يحسبها كثير من الناس حديثاً وما هي بحديث ، يعني أن العجائز مؤمنات بالله على فطرة الإسلام ، لم تجتالهن شياطين علم الكلام .

وفخـر الدين الـرازي رحمه الله من أكـابر القـوم الذين اشتغلوا بعلم الكلام ، إلا أنه لم يستقر على هذا الضلال ، ويعترف في آخر أيامه بخطئه ، فيقول : « لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفيـة . فما رأيتهـا تشفي عليلا ، ولا تروي غليلا ، ورأيت أقرب الطرق طريقـة القرآن . . . . ومن جرب تجربتي عرف مثل معرفتي »[٢٢٦]

ولا ننسى الغزالي رحمه الله الذي يعتبره سعيد حوى أعظم مفكر في العالم شرقه وغربه ، فقد كسر مغزله ـ أوردنا ذلك عندما تعرضنا لسيرة الغزالي ـ وتصوف ثم استبان له خطل التصوف وفساده ، ورجع إلى مذهب أهل الحديث كما بين ذلك شيخ الإسلام في كتابه « نقض المنطق» صفحـة ٦٠ إلا أن المنية اخترمته قبل أن يروي ظمأه ، وقد كان أشعرياً في العقيدة .

خامساً ـ نتائج وحقائق لا بد من إدراكها

لقد بات يقيناً أن الأشعري رأس المذهب المنسوب إليه ، كان سلفياً على مذهب أهل الحديث ، بينما الأشاعرة انتهوا إلى الحيرة والتردد فالـرجوع إلى عقيدة السلف ، وذكرنا أئمتهم فهذا الجويني في « الإرشاد » و« الشامل » قد ذهب إلى التأويل في جميع أيات الصفات ، ومن ثم عاد وترك ما صرح به فيهما وذهب إلى خلاف ذلك كما في « العقيدة النظامية » .

فما السر وراء ذلك ؟ هل اتبع تلاميذ الأشعري خطوات أستاذهم كما يزعمون ؟ هل بقوا على المعالم التي ذكرها بين دفتي الإبانه ، وفي ثنايا المقالات ، وفي سطور رسالة أهل الثغر ؟

---

(٢٢٦) شرح حديث النزول ، ابن تيمية ، ص ١٧٦

الحقيقة تتجلى كالشمس في رابعة النهار قائلة أن متأخري الأشاعرة حرفوا مذهب الأشعري الذي يعتبر امتداداً لأقوال أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى ، وطمسوا معالم السبيل ، ولم يبق لهم من أشعرية أبي الحسن إلا الاسم ، أليس من الظلم أن ينسب مذهب التأويل وعلم الكلام إلى أبي الحسن وقد تبرأ منهما ؟

والذي يوضح ما ذهبنا إليه أن مذهب أبي الحسن رحمه الله في الصفات هو مذهب السلف رحمهم الله الإيمان بها دون تحريف ، ولا تكييف ، ولا تشبيه ، ولا تمثيل ، بينما مذهب تلاميذه إثبات الصفات العقلية وهي سبع صفات ، وبعضهم تكرم وزادها ست صفات ، ونفي الصفات الفعلية كما ذكرنا عن البغدادي ، وتأويل الصفات الخبرية كالمجيء والاستواء والنزول . . . فهم يؤمنون ببعض الصفات وينفون بعضها .

هذه الحقائق نوردها على افتراض صحة زعمهم أن للأشعري مذهباً أسسه ، ورفع قواعده ، إلا أن هذه الحجة داحضة لقول الأشعري رحمه الله : « وبما كان يقول به أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل-نضر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبتة ـ قائلون ولمن خالف قوله مجانبون لأنه الإمام الفاضل ، والرئيس الكامل » .

اذن فالأشعري لم يأسس مذهبا مستقلاً بل يعتبر نفسه جزءاً من أهل الحديث ، وامتداداً لما كان عليه إمام أهل السنة أحمد رحمه الله ، والأولى بالأشاعرة إن كانوا صادقين في ادعائهم أنهم على سنن أبي الحسن رحمه الله أن يعلنوا انتسابهم للإمام أحمد رحمه الله فمن المعلوم بداهة أن اللاحق ينسب للسابق ، فهل نحن فاعلون ؟

فإن لم يفعلوا ولن يفعلوا فاعلم قارئي الكريم أنهم لبسوا ثوب الأشعري

تمويها وانتسبوا إليه تدليساً ، ليخدعوا البسطاء من الناس ببدعة علم الكلام فيجرهم سيل التأويل . . . . احذر أيها المسلم هذه الأحابيل ودع عنك علم الكلام فإنه أباطيل ، واعلم أن الأشاعرة المتأخرين موهوا ومخرقوا واعتزلوا ذلك السبيل .

سادساً ـ علاقة التمذهب بالتصوف

نتيجة لشيوع المذهبية في الفقه ، وانتشار علم الكلام في العقيدة ، نبت التصوف واستوى على سوقه .

أ ـ لقد أصبح الفقه المذهبي المسطور في الكتب المذهبية ترديداً لمعلومات جافة باهتة لا تحرك الضمير ، ولا تهز الوجدان ، ولا تلين القلوب ، ولا تروي ظمأ الروح ، ولا تهذب النفس،ولا تكبح جماح الهوى ، ولقد كان هذا الجفاف الفقهي والتفصيل المذهبي سبباً في ارتماء العطشى روحياً والحيارى قلبياً في أحضان الصوفيين الذين مدوا أيديهم لاجتذاب هؤلاء ليشربوا من الفيض الرباني الذي لا ينضب معينه، ولا ينقطع سلسبيله عن السالكين العارفين ـ زعموا .

ب ـ وقد فتح الفقه المذهبي أبوابه لكل مسألة حدثت أو لم تحدث أو لن تحدث ، وشمر فقهاؤه عن سواعدهم لإيجاد حلول لها ، فبدأ كل منهم يضع اقتراحاته ، ويشعب المسألة حتى أصبح المشتغل بالفقه لا يسمى فقيها إلا إذا غاص في المسائل الآرائية والأغلوطات والمعضلات حتى مفرق رأسه ، فتضخم كل مذهب وكأنه دين مستقل وغدا المعروف أن وجود إنسان يحيط بهذه الاتجاهات على كثرتها مستحيل ، فالفقه الحنفي لا يمكن دراسته بأقل من أربعين عاماً . بينما الرسول وأمته نشروا الإسلام في ربوع الدنيا ، وفتحوا ما

فتحوا من البلاد خلال هذه الفترة تقريباً ، مع ما لاقوه من أصناف العذاب ، وضروب المقاومة .

لذلك سارع السذج من المسلمين وعامة المقلدين إلى الصوفيين ليتعلموا العلوم بسرعة البرق ، ولمح البصر عن طريق حدثني قلبي عن ربي - الكشف والإلهام والحدس والفراسة - والخلوات ، وأنواع المجاهدات ، والرياضات .

وهذا الأمر تتضح صحته وتظهر أدلته ، إذا عدنا إلى التاريخ ، واستقرأنا حياة المتصوفة ، وخاصة الأعلام منهم ولنضرب على ذلك مثالاً ، بمزيد من البيان ، وبشيء من التفصيل .

الجنيد بن محمد : فارسي من نهاوند توفي عام **٢٩٧** هـ وهو من أئمة القوم ، ويسمى سيد الطائفة ، وقد كان فقيهاً على مذهب أبي ثور[٢٢٧] .

الشبلي : كان من سادات القوم قال فيه السلمي صاحب طبقات الصوفيه : « صحب الجنيد ومن في عصره من المشايخ ، وصار أوحد وقته حالاً وعلماً ، وكان عالماً فقيهاً على مذهب مالك »[٢٢٨]

ولو استقصينا سيرة أعلام التصوف لوجدناهم ينتسبون إلى مذهب من المذاهب الأربعة ، يقابل هذا خلو ساحة التصوف من المحدثين ومن تابعهم وناصرهم ، فمن الصعب أن تجد محدثاً صوفياً.هذه الحقيقة تجعلنا نتساءل ما الذي دعا المذهبيين إلى الارتماء في أحضان المتصوفة لو وجدوا في مذاهبهم ما يسد رمقهم ، ويطفيء عطشهم ؟

---

(٢٢٧) جولات في الفقهين ص ١١٩ ، وأنظر ترجمته في الرسالة القشيرية
(٢٢٨) الطبقات للسلمي ص ٣٣٧

إن هؤلاء القوم سئموا جمود الفقه المذهبي وجفافه ، وتشعباته المذهلة ، فتاقوا إلى غذاء القلب فعمدوا إلى التصوف ، وجرفهم سيله العرم ، ودخلوا بطون المتصوفة وما عرفوا كيف يخرجون، فاتخذوا المذاهب تقية ، وكذلك كان يفعل الجنيد والشبلي .

وكما فشل التقليد والجمود في إحياء ضمير الإنسان المسلم فكذلك صنع علم الكلام والمنطق فقد بلد المشاعر ، وأمات العواطف وأفرز الانحراف في العقيدة ، والزيغ في القلوب .

ولقد أدرك مؤسسو التصوف هذه الحقائق ، وعلموا أن المذهبية تربة خصبة ينمو فيها التصوف لا بساً لبوس الإسلام . ومن يومها بدأ المتصوفة تعليم مريديهم صنعة لبوس لهم تقيهم بأس المخلصين من المذهبيين ، وتخدع البسطاء من العاملين ، لكنها في الوقت نفسه غفلة منهم يتضح من خلالها أن التصوف تيار باطني مدمر .

وخلاصة سعيهم في قولهم الذي أشار إليه الأستاذ سعيد حوى في كتابه «جولات»من أن التصوف يكمل العقيدة والأحكام الشرعية ، بل هو الوسط الذي يمد العقيدة بالحياة ، ويغذي الأعمال بالنبض ، وقد أشرنا إلى ذلك في محله من هذه الدراسة ، والذي وعدنا بمزيد بيان فيه هو أدلته التي ذكرها ، وأسس بنيانه عليها ، فقال : « افتح الآن كتاب توحيد وكتاب فقه فإنك لا تجد فيهما أي إشارة لقضية القلب وعلومه . . . . وهذا وحده يشير إلى أن هناك علماً مكملاً لهذه العلوم وقد أصطلح على أن يسمى هذا العلم علم التصوف أو علم السلوك إلى الله عز وجل »[٢٢٩] فهو يعترف ضمناً بجفاف الكتب المذهبية ،

---

(٢٢٩) جولات ص ١١٨

وسراب الطرق الكلامية ، لذلك يخترع علماً ثالثاً ليستر بـه سوءة التمـذهب، ويواري عورة علم الكلام .

ونتركه يشرح كلامه بنفسه ، ويزيده إيضاحاً لا يترك للتحايل مكاناً ، فهو يرى أن على المسلم أن يرجع إلى كتب التصوف حتى يعرف كيف يكون خاشعاً في صـلاته ، مخلصـا في عمله ، فيقول : « فـالصلاة من حيث كـون إنكارها كفرا يبحث بهذا في كتب العقائد والصـلاة من حيث كونها أعمـالاً وأقوالا يبحث هذا في كتب الفقه وأما كيفية تحصيل الخشوع فيبحث هذا في كتب التصوف ، والجهاد من حيث كونه فريضة يكفر جاحدها وفرضيتة أمر معلوم من الدين بالضرورة وإنكارها كفر يبحث هذا في كتب العقائد ومن حيث أحكامه وما يترتب على ممارسته من أمور لها أحكام يدرس هذا في كتب الفقه ، والإخلاص الذي هو شرط قبوله عند الله وبقية الأعمال يبحث هذا عادة في كتب التصوف »(٢٣٠) .

ان هذه الأقوال أسست على الاعتقاد بصحة التمذهب ، ووجـوبه ، وكذلك علم الكلام ، وقد تبين أن ذلك رَدٌّ .

ومن المعلوم بداهة أن ما أسس على باطل فهو باطل ، وما لزم الباطل فهو كذلك .

والواجب أن نعمد إلى فقه الكتاب والسنة ، لنذوق لذة العلم والإيمان والإحسان فنعبد الله كأننا نراه ، فإن لم نكن نراه ، فإنه يرانا .

إن جميع الأهداف السامية التي يصبو إليها الإنسان بفطرته ، لن تتحقق إلا بفقه الكتاب والسنة .

---

(٢٣٠) المصدر السابق ص ١٤٥

لنرجع إلى عهد النبوة وما درج عليه الصحابة رضي الله عنهم ، والتابعون لهم بإحسان ، الذين تأثروا بعهد النبوة والصحبة ، ودعونا نقتبس من نور هذه القرون ، فإنها خير القرون .

ألم يكن الناس وقتئذ خير أمة أخرجت للناس ؟ ألم يكونوا ذلك الجيل الفريد الذي لن يأتي بمثله الزمان ؟ فإذا لم نفلح ونحن سائرون على هذا المنهاج السويّ ، الذي بلغه الرسول النبيّ الأميّ ، فحقيق بنا أن نبيد . . . لأنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها . . . فيا أتباع محمد ﷺ عليكم بالأمر العتيق فقد كفيتم .

ولئن قيل أن من أعيته الحجج لجأ إلى هذا القول « وهناك ناس يطرحون دائما سؤالا وفي كل حال إذا أعيتهم الحجج وهو : أليس في الكتاب والسنة ما يغني عن هذا الكتاب : نعم ولكن هذا الكتاب يجمع المثل إلى المثل ثم إنه ليس كل إنسان بقادر أن يقرأ الكثير ويستوعب الجميع ويربط المواضع ولا بد للإنسان من أساس موضح ونقطة انطلاق سريعة المتناول ومن ثم كان هذا الكتاب فإذا كان الكتاب مقيدا بالكتاب والسنة ومحررا على ضوء ذلك فالإنكار عليه خطأ لأن المنكر عليه ينبغي أن ينكر على أي كتاب ألف إذ أليس في الكتاب والسنة ما يغني ويكفي . . . وهذا الذي ذكرته في الجواب ههنا هو في الحقيقة السر في نشأة هذا العلم ونشأة كل علم لقد وجد علم التصوف واستقر . . . وكما قررنا في رسالة جولات لم يكن ممكنا ألا يوجد وأن لا يستقر فعندما تقرأ الكتاب والسنة تجد كلاما كثيرا عن القلب والإيمان والذوق وأمراض القلب ودواء هذه الأمراض وتجد كلاما عن صمم القلب وعماه وعن سلامته وسقمه وعن تقواه وفسوقه ، وعن النفس البشرية عن زكائها وعن فجورها .

وأمثال هذه المعاني وهذه القضايا ضمن سجل خاص وأن ينشأ لذلك علم خاص في كل ماله علاقة في حيثيات هذه المعاني ، وكان هذا العلم هو علم التصوف والسلوك فليس بمستغرب إذن أن يوجد هذا العلم بل المستغرب ألا يوجد إذ دأب علماء المسلمين أن يكتبوا في كل موضوع على حدة فيضموا الشيء إلى نظيره ومثيله ويشرحوا ويفصلوا ويجيبوا على أي سؤال لـه علاقـة في هذا الموضوع . . . » [٢٣١] ، نقول إن هذه النصوص تزعم أن التصوف كان على عهد الرسول وأصحابه ، وأنه علم مستنبط من كتاب الله وسنة رسوله ، وهذا زعم أتينا بأدلة بطلانه ، ولكن على فـرض صحته فـإن الخلاف ينحصـر في اللفظ ، حيث يتطابق لفظ التصوف والتقوى ، وعندئذ يجب علينا أن نؤثر ما اختاره الله على اختيار البشر ، ونقدم اللفظ الذي رضيه الله ولا نرغب عنه إلى مفاهيم البشر ، وينبغي أن نسمي الأشياء بأسمائها التي أصبحت أعلاما عليها في دين الله ، فالإسلام لم يسم الشعائر التي جـاء بها التصـوف وإنما سمـاها عبادات ثمرتها التقوى والتزكية ، هذا على افتراض صحة القول المزعوم ، بله والكلمة مولدة دخيلة على لغة العرب .

والحقيقة أن هذا الزعم استغلال لـموافقة التصـوف لبعض ما جـاء به الإسلام ، لتمرير المناهج والوسائل التي اندرجت تحت اسم التصوف وحملت في طياتها البلاء المستطير ، وتأبطت شرا للمسلمين ، فافهم أخي المسلم هذه الحقيقة فإنها سهم قاتل لهذا الباطل ، فالإسلام لا يعرف التجزؤ والانقسام ، وإنما الدين كل متكامل ، فالمطلوب من المسلمين أن يأخذوا الإسلام جملة أو يتركوه ليستبدل الله قوماً غيرهم .

---

(٢٣١) أنظر تربيتنا الروحية ص (٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤)

حسـن البنـا

أولا ـ الغلو في حسن البنا

لم يستطع سعيد حوى أن يستقر على مذهبيته التي أوجبها على عباد الله دون دليل من كتاب الله أو سنة رسوله ، اللهم إلا جعجعة دون طحن علها تثير النقع فيختلط الأمر على عامة المسلمين .

فتدأدأ في هوة التناقضات عندما ألبس شيخه هالة العصمة ، وأحل ما حـرَّمه ، ونقض ما أصَّله .

أ ـ حسن البنا مجتهد مطلق ، يقول : « وجاءت الحركة الإسلامية المعاصرة وكان مؤسسها إماماً قد وصل إلى مرتبة الاجتهاد وهو حسن البنا رحمه الله » [٢٣٢] . وقال أيضا : « لا أعلم أحداً في هذا العصر توفرت فيه شروط المرشـد الكامـل إلا حسن البنا رحمـه الله » [٢٣٣] .

ب ـ مثل حسن البنا لم تلد النساء ، يقول : « إن حسن البنا بين خلق الله في هذا العصر استطاع أن يوجد القاسم المشترك الوحيد الذي يمكن أن يلتقي عليه المسلمون وتقوم به جماعة جامعة » [٢٣٤] وقال : « إن ميزة دعوة الأستاذ البنا عن غيرها أنها أوجدت الصيغة التي يمكن أن يلتقي عليها المسلمون جميعا » [٢٣٥] .

ج ـ حسن البنا وليّ من أولياء الله . يقول : « إننا نملك بفضل الله نقطة البداية الصحيحة وهي الانطلاق من اجتهاد إنسان مجدد لا يشك عارفوه أنه من أولياء الله عز وجل

---

(٢٣٢) المصدر السابق نفسه ص ٧٥

(٢٣٣) المصدر السابق نفسه ص ١٦٠

(٢٣٤) جولات ص ٧٩

(٢٣٥) المدخل إلى دعوة الإخوان المسلمين ص ١٨٥ ، وقد صرح في المدخل ص (٤٦) أن حسن البنا ليس كمثله رجل في العالم الإسلامي منذ عدة قرون .

وهو الأستاذ البنا رحمه الله وعلينا أن ننطلق بدفعة التجديد في هذه الأمة مهما كلفنا ذلك » (٢٣٦) .

د - حسن البنا مجدد القرون العشرة الخوالي

لم يستطع الأستاذ حوى أن يكبح جماح غلوه ، وهو ينظر إلى المسلمين من نافذة التعصب ، فمضى في تطرفه مقررا أقوالا أغرب من الخيال ، وأوهاما أضخم من الجبال ، يقول : « كان شيخنا الشيخ محمد الحامد رحمه الله وهو الذي لم تقع العين على مثله ورعاً والتزاماً وإخلاصاً وتحقيقاً وتمسكاً بما ظهر له من حق كان شيخنا هذا رحمه الله من الذين يرون أن باب الاجتهاد قد أغلق في هذه الأمة وهو موضوع تكلم فيه العلماء منذ عصور بسبب رؤيتهم تعذر وجود مجتهد يحيط باتجاهات العلماء بعد مسيرة الأمة الاسلامية كذا قرناً ومع أن شيخنا رحمه الله كان يرى ذلك فإنه يقول عن الأستاذ البنا رحمه الله بأنه وصل إلى رتبة الاجتهاد . هذا مع أن الشيخ رحمه الله كان له مناقشات حادة وطويلة مع الأستاذ البنا في كثير من الأمور وكثيراً ما رجع الأستاذ البنا إلى رأيه . وكان الشيخ الحامد رحمه الله يقول عن الأستاذ البنا : كان لي زعيم ومات وكان إلى آخر عمره إذا ذكره يبكيه بكاء مراً رحم الله الاثنين ونسأل الله أن يلحقنا بهما في عليين مع الرسل والأنبياء والشهداء والصالحين » (٢٣٧) . وقال أيضا : « ونقطة البداية في الثقة المطلقة بدعوة الإخوان ترجع إلى الثقة بشخص حسن البنا رحمه الله - ولقد أخذنا هذه الثقة ورضعناها عمن هم أمثال الجبال في الثقة .

منهم شيخنا الشيخ محمد الحامد - رحمه الله - الذي كان يعتبر حسن البنا مجدد القرون السبعة الماضية وليس مجدداً لقرن واحد والذي كان يعتبر حسن البنا قد وصل إلى رتبة

---

(٢٣٦) تربيتنا الروحية ص (١٤٥ - ١٤٦)
(٢٣٧) جولات ص (٧٥ - ٧٦)

الاجتهاد ، وهو الذي لا يسلم أن الأمة قد وجد فيها مجتهد منذ عشرة قرون ، وكل ذلك عن تجربة شخصية مع حسن البنا رحمه الله ، وكان يعتبر حسن البنا هو الوحيد الذي أعطته النفس مقاليد القيادة الكاملة » (٢٣٨) .

اقتضت حكمة الله تبارك وتعالى ، وقد أرسل محمداً ﷺ وجعل شريعته خاتمة الشرائع . أن يحذر من كل السبل التي يخشى أن تتخذ ذريعة لوقوع الناس في المحظور المنهي عنه ، فلذلك نهى عن الإطراء والتمادح والتزكية إذ كل ذلك يقود إلى الغلو في الصالحين وعبادتهم باعتقاد عصمتهم ، لاسيما عند انتزاع العلم وفشو الجهل ، وقلة العلماء الناصحين . وتعاون الشياطين من الإنس والجن على اجتيال الناس .

وقد قرر القرآن في غير ما موضع أن الشياطين تجتال المسلم على مراحل لأن أعمالهم قائمة على سياسة الخطوة خطوة ، لذلك قال الله : ﴿ **وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَٰنِ** ﴾ وأول هذه الخطوات أن يزين للمسلم أعماله السيئة تحت شعارات منمقة خادعة ظاهرها إيمان وباطنها شرك ، فيحسب أنه يحسن صنعا ، قال تعالى:﴿ **وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ** ﴾ (٢٣٩) .

فَيُزَيِّن له الربا تحت شعار الفائدة ، وشرب الخمر تحت شعار المشروبات الروحية وقليل منها ما ينعش الروح ، وشهادة الزور تحت شعار مصلحة الدعوة ، وعبادة الصالحين وتقديسهم تحت شعار « لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذووالفضل » (٢٤٠) .

إن الغلوفي الصالحين يقود إلى الشرك ويسوق الإنسان إلى حظيرة الشيطان ، فلقد

---

(٢٣٨) المدخل إلى دعوة الإخوان المسلمين ص ١٨٣

(٢٣٩) النحل : ٢٤

(٢٤٠) جزم سعيد حوى في المدخل ص ١٨٥ ، ودروس في العمل الاسلامي ص ١٤ ، بصحة هذا القول مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، والذي عليه أهل العلم بالحديث الشريف أن هذا الحديث موضوع ولا تصح نسبته إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فمن أين أتي الأستاذ . . . أم أنها قلة الزاد في علم الحديث ؟ !

خلق الله عباده حنفاء فاجتالتهم الشياطين كما في الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم (٨/١٥٩) وأحمد (٤/١٦٢) عن عياض بن حمار المجاشعي قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه : (إني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم . وحرَّمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً) . وكيف اجتالتهم الشياطين عن البيضاء النقية ؟ وكيف صرفتهم عن الدين القيم ؟ يخبرنا حبر الامة وترجمان القرآن عن أصل كل داء ، ورأس البلاء ، شارحاً كيف طرأ الشرك على المؤمنين بعد أن كانوا موحدين .

قال رضي الله عنه مبيناً قول الله تعالى في سورة نوح عن قوم نوح : ﴿ **وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً** ﴾ . قال ابن عباس : « صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد . أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ، ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ ، وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لحمير ، لآل ذي الكلاع . **أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا ، فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك وَتَنَسَّخ العلم عبدت** » [٢٤١] .

فإذا تقرر أن الغلو وهو الإفراط في المدح والإطراء يؤدي إلى الشرك بالله ، فقد أغلق الإسلام الباب المؤدي اليه سداً للذريعة ، قال ﷺ : (**إذا رأيتم المداحين ، فاحثوا في وجوههم التراب**) [٢٤٢] وكذلك شنع التمادح وجعله كقطع العنق ، وسفك الدم ، عن أبي بكرة رضي الله عنه عن النبي

---

(٢٤١) أخرجه البخاري موقوفاً وهو في حكم المرفوع لأنه لا يقال من قبل الرأي . انظر فتح الباري (٨/٦٦٧) ونحوه في تفسير ابن جرير عن غير واحد من السلف ، وانظر « الدر المنثور » للسيوطي (٦/٢٦٩)

(٢٤٢) أخرجه مسلم (٨/٢٢٨) وغيره عن المقداد بن الأسود

ﷺ . أنه ذكر عنده رجل : فقال رجل : يا رسول الله ، ما من رجل بعد رسول الله ﷺ أفضل منه في كذا وكذا . فقال رسول الله ﷺ : (**ويحك قطعت عنق صاحبك**) مرارا يقول ذلك .

(ولكن رسول الله ﷺ وقد بين بطلان قول الرجل وخطأه أرشده إلى السنة) * ثم قال رسول الله ﷺ : (إن كان أحدكم مادحا أخاه لا محالة فليقل : أحسب فلاناً - إن كان يُرى أنه كذلك - ولا أزكي على الله أحدا) [٢٤٣] .

وربما يقول الذين لا يرضيهم هذا القول : إن هذه الأحاديث جاءت في التحذير من المدح في الوجه لأنه مظنة الرياء ، أما أن تذكر أخاك من خلفه بما فيه من الصفات الحميدة والأخلاق الطيبة ، فهو مستساغ ذوقاً ، ومقبول شرعاً .

إن حديث أبي بكرة واضح لا يحتاج إلى تأويل ، وصريح في الرد على هذا الاحتمال ، ألم يقل : أنه ذكر عنده - أي رسول الله ﷺ - رجلا ؟ وهذا دليل على أن الرجل الممدوح لم يكن حاضر المجلس .

وهناك قسم آخر يقصر هذه الأدلة على من كان حياً ، أما من كان ميتاً وقد تحقق صلاحه وموته على الإيمان فلا ضير من الشهادة له بالتقوى وتزكيته ، ولعل أبلغ دليل في الرد على هؤلاء ما أخرجه البخاري عن أم العلاء الأنصارية **فلقد قالت عندما توفي عثمان بن مظعون : شهادتي عليك أبا السائب أن الله أكرمك** . فسمعها الرسول ﷺ فرد عليها قائلا : (وما يدريك أن الله قد أكرمه) قالت : سبحان الله يا رسول الله ! ومن يكرم الله إذا لم يكرمه ؟ قال لها

---

* الكلام الموجود بين القوسين من كلامنا .

(٢٤٣) أخرجه البخاري ومسلم واللفظ له

رسول الله ﷺ : (والله إني لرسول الله لا أدري ما يفعل بي غدا) فقالت : والله لا أزكي بعده أحدا أبدا .

وبعد هذا البيان الشرعي نقول للأستاذ سعيد ليس من البر لشيخك محمد الحامد رحمه الله أن تصفه بما وصفته مقرراً مثبتاً جازماً حينما قلت : « وهو الذي لم تقع العين على مثله ورعاً والتزاماً وإخلاصاً وتحقيقاً وتمسكاً بما ظهر له من حق » . وكذلك وصفك للشيخ حسن البنا رحمه الله دون التزام بما أمرنا الرسول ﷺ أن نقوله إذا أردنا الثناء على أحد لا محالة

ذكرنا ما ذكرنا على افتراض صحة الأقوال التي وصف بها حسن البنا رحمه الله ، وكذلك نضيف قائلين : إن الاجتهاد الذي أغلقتم بابه بأيديكم ، واختلستم مفتاحه ، وزعمتم أنه مفقود . ما باله يفتح على مصراعيه للشيخ حسن البنا ويغلق في وجه الأمة الإسلامية جميعها ؟ ليس من شك أن الدافع وراء هذا السلوك المشين ، والفكر المتناقض ، هو التعصب والغلو في الشيوخ ، والمحسوبية .

لقد وصف الشيخ محمد الحامد رحمه الله في رسالته « لزوم اتباع مذاهب الأئمة » ص ١٣ **كل من يحاول الاجتهاد بأنه ناقص العقل ، قليل العلم ، رقيق الدين أحمق** . وها هو يزعم أن البنا مجدد القرون السبعة الماضية ، فما هذا التناقض العجيب الغريب الذي يجعل الإسلام ألعوبة في أيدي هؤلاء فيوثقون من شاءوا ، ويطعنون فيمن شاءوا ؟ ! .

لو أردنا تطبيق قاعدة الشيخ الحامد المذكورة آنفاً فإن البنا رحمه الله سيكون كما وصف ـ وحاشاه ـ وهل يجدر بمن كانت هذه صفاته أن يتبوأ مرتبة الاجتهاد ؟ وإن قلنا أن الشيخ البنا رحمه الله بلغ مرتبة الاجتهاد وليس كما

وصف ، فكذلك كل إنسان عنده الأهلية والمقدرة لبلوغ مرتبة الاجتهاد ، فإن قالوا : البنا وحده المجدد المجتهد . قلنا : ﴿ **هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين** ﴾ فأين دليل التخصيص ؟ ! ﴿ **أتقولون على الله ما لا تعلمون** ﴾ .

أيها الغالون : إن الإسلام أسمى من تعصبكم المذهبي ، وانتمائكم الحزبي ، فباب الاجتهاد مفتوح لمن كان عنده أهلية الخطاب ، وفهم أدلة ما يحتاجه من فقه السنة والكتاب .

هلّا احترمتم شعور الملايين من المسلمين على مر عشرة قرون وأنتم تزعمون أنها خالية خاوية لم تحظ بمجتهد واحد حتى جاء القرن الرابع عشر الهجري وأنجب مرشدكم ، إن الرسول ﷺ أخبر بوجود مجدد على رأس كل مائة عام ، وأنتم تزعمون وجود مجدد على رأس كل ألف عام ، كفاكم تطرفاً فقد شربتم كأس الغلو مترعة . . . أنسيتم هازم التتار شيخ الإسلام ابن تيمية ؟ ! أنسيتم بائع الملوك عز الدين بن عبد السلام ؟ ! وأين يقع ابن القيم وابن كثير وابن حجر والنووي والذهبي ومحمد بن عبد الوهاب والشوكاني رحمهم الله في قاموسكم أم أنكم تعتقدون أنكم جزء مبتور من تاريخ الأمة الإسلامية الحافل بالمجتهدين والمجددين ؟ ! إن الذي يلوح من أفقكم أنكم تعتبرون حسن البنا رحمه الله يوم مولدكم ، ونقطة بدايتكم .

ويقولون نحن لا نؤمن بعصمة أحد إلا الأنبياء . ولشيخنا محمد الحامد رحمه الله جولات مع الأستاذ البنا وكثيرا ما تراجع إلى رأي الشيخ محمد الحامد ، فقد حدثنا أستاذنا المربي الكبير محمد الحامد أنه استمع إلى محاضرة

للبنا فسجل عليه إحدى عشرة غلطة في العقيدة والفقه ، وبعد المحاضرة واجه البنا بأخطائه فاعترف بثمانية منها ، وذكر دليله في الأمور الباقية*

إن كنتم لا تؤمنون بعصمة البنا رحمه الله ، فلماذا لا تتكلمون عن أخطاءه حتى لا يقع فيها تلاميذه الذين له في أعناقهم حق البيعة كما تزعمون ؟

وأيضا إن تحدثنا لضرورة شرعية عن بعض الأخطاء سلقونا بألسنة حداد ، ونظروا إلينا كالذي يغشى عليه من . . . ، وراحوا يشهرون بنا ، ويقولون هؤلاء قوم لا همَّ لهم إلا النقد والتجريح والهدم ، إنهم دعاة تخريب وطعن في الصف الإسلامي ، إنهم أجسام غريبة عن الجماعة الإسلامية ، فهم ينتقدون البنا والهضيبي وسيد قطب . . . أما فضيلة المربي الكبير والعلامة المجاهد محمد الحامد رحمه الله فبرد وسلام عليه أن يسجل إحدى عشرة غلطة على البنا وفي محاضرة واحدة ، والأخطاء التي سجلها ليست في قضايا ثانوية هامشية سطحية فرعية خلافية ـ يحلو لبعضهم أن يقسم الإسلام إلى لباب وقشور ـ وإنما في العقيدة والفقه . . . بينما مجموع ما نأخذه على البنا رحمه الله لا يبلغ ما سجله فضيلة الشيخ في محاضرة واحدة . . . اللهم طهر قلوبنا من الزيغ ونفوسنا من الهوى وأعمالنا من الرياء والسمعة ، ﴿ **وَٱلَّذِينَ جَآءُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ ، رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (٢٤٤) .

---

* أبلغني أخ ثقة فاضل ـ أحسبه كذلك ولا أزكي على الله أحداً ـ أنه سمع هذه القصة في جلسة مع سعيد حوى ، وقد أوردتها وجزمت بصحتها لأني رأيت سعيداً قد لمح إليها في كتابه جولات ص (٧٥ ـ ٧٦) فقال « هذا مع أن الشيخ رحمه الله كان له مناقشات حادة وطويلة مع الأستاذ البنا في كثير من الأمور وكثيراً ما رجع الأستاذ البنا إلى رأيه . . . » أ هـ ترى هل يستطيع سعيد حوى أن يكتب في واحد من كتبه الكثيرة التي أخرجها ـ عند إعادة طبعه ـ أو سيخرجها مثل هذا الكلام الذي صرح به في جلسة مغلقة .

(٢٤٤) الحشر : ١٠

هل كان الشيخ حسن البنا مجتهداً ؟

يعتقد الأستاذ سعيد حوى أن حسن البنا رحمه الله بلغ مرتبة الاجتهاد ، ونبغ في تقعيد نظريات العمل الإسلامي المعاصر ، فحاز على قصب السبق في هذا المجال ، يقول : « إن الأستاذ البنا رحمه الله الذي هذا شأنه * هو واضع نظريات العمل الإسلامي المعاصر وكل كلمة من كلماته يجب أن ننظر إليها بمنظار دقيق ، إنه إذا كانت الفتوى لا يستطيعها أي إنسان فكيف بنظريات العمل الإسلامي في عصر معقد وبعد تاريخ طويل ذي مآسي متعددة في مرحلة ضعف رهيبة أصابت الإسلام والمسلمين » (٢٤٥) .

من هذه الفقرة نستنبط أنهم يعتقدون أن البنا بلغ مرتبة الاجتهاد ، وأن مقام الاجتهاد الذي بلغه في السماك الأعزل ، فقد كان علماً في وضع نظريات العمل الإسلامي المعاصر .

إن هذه الفقرة التي ظن سعيد أنه سطر مآثر البنا رحمه الله ، وعدد مناقبه فيها تشير بأصبع الاتهام إلى حسن البنا ، فهي توضح منهج البنا في استنباط نظريات العمل الإسلامي المعاصر . وأنه يرى حقل الدعوة ميدان تجارب ، وفي هذا التصور مفاسد . أولها : قولهم نظريات العمل الإسلامي ، فهل الأسس التي يقوم عليها العمل الإسلامي نظريات ؟ إن هذه الكلمة تحمل في ثناياها احتمال الصواب والخطأ وكأن سبيل الدعوة يحتمل الصواب والخطأ . ولو أردنا أن نحمل هذه الكلمة على المفهوم القرآني للدعوة لهووا في واد سحيق ، إلا أن الدعوة في المفهوم الإخواني هي تجارب الدعاة ، وأبلغ دليل

---

* أورد هذه العبارة بعد أن نقل تقريظ الحامد للشيخ البنا والذي نقلناه كاملاً فتقديره الذي هذا شأنه في الاجتهاد

(٢٤٥) جولات ص ٧٦

على أن هذا هو التصور الإخواني للدعوة مذكرات الدعوة والداعية لحسن البنا ، ومشكلات الدعوة والداعية لفتحي يكن ، ودروس في العمل الإسلامي لسعيد حوى ، فإن الباحث في هذه الكتب لا يجد سوى تجارب الإخوان ومآسيهم خلال نصف قرن .

وهذا المفهوم خاطىء من الجهة الإسلامية ، فإن الدعوة الإسلامية توقيفية لا يحتج فيها بالتجارب الشخصية ، والنزعات العقلية ، ولا تعتبر صحيحة بكثرة الأصابع المرفوعة .

إن هذا الأصل العظيم على الدعاة فهمه وهضمه ، واضح المعالم ، صلب القواعد ، لأن الله رسمه ، وحدد منهجه ، وما كان الله تعالى ليترك هذا الأمر وهو وسيلة تحقيق العبودية لله في الآرض هملا مرتعاً لكل ناعق يميل مع الريح حيث مالت ، فقال تعالى:﴿ **ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾[٢٤٦]، وقد بينا من قبل معنى الحكمة في هذه الآية وأنها السنة ، ثم تبلغ هذه السنة بالموعظة الحسنة والأسلوب الرشيد ، فإن لم تفعل فما بلغت الدعوة ، وإن خُيِّلَ إليك أنك داعي إلى الله عز وجل ، وهذا من تلبيس إبليس على الدعاة في هذا العصر .

ويؤكد هذا الأصل قوله تعالى:﴿ **قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدعوُ إلى ٱللهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنا وَمَنِ ٱتَّبَعنِي وَسُبحان ٱللهِ وَمَا أَنا مِنَ ٱلمشرِكِينَ** ﴾[٢٤٧] .

والمفهوم الإخواني الخاطىء للدعوة سار بهم في سبل متفرقة مخالفة للهدي النبوي الذي سار على نهجه الصحابة رضي الله عنهم والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الناس هذا .

---

(٢٤٦) النحل : ١٢٥

(٢٤٧) يوسف : ١٠٨

ولكيلا يعكر عليك التعصب صفو الحقيقة ، ووضوح الحجة ، نسوق إليك مثالا .

من الأصول المعتبرة في دعوة الإخوان عدم انتقاد الأخطاء في الأفكار المطروحة ، والمؤسسات القائمة ، وإنما ينتقدها من خلال تقديم البديل ، ومن خالطهم وعرف واقعهم عرف ما قلنا .

وهذا الأصل ذكره البنا في مذكراته وهو ينصح أتباعه قائلا « اشغلوا الناس عن الفكرة الباطلة بفكرة صحيحة » (٢٤٨) .

فالإخوان إن دعوا إلى التوحيد لم يحذروا من الشرك ، وإن علموا السنة لم يقمعوا البدعة ، ولئن سألتهم قالوا : إن هذه التفاصيل تفرق المسلمين ، ونحن دعاة وحدة وائتلاف لا دعاة فرقة واختلاف ، ونحن دعاة نصلح المجتمع لا قضاة نحاكم المجتمع ، ونحدد سلبياته أو نعدد أخطاءه .

إن هذه الأقوال أعراض الانحراف عن فقه الدعوة المستنبط من الكتاب والسنة إلى التجارب الشخصية والاستحسانات الفردية ، ، إن هذا الأصل الذي وضعه حسن البنا ليس له في الإسلام أصل فلنعد إليه ونعرضه على كتاب الله وسنة رسوله .

إن رسول الله ﷺ دعا قومه إلى سنن الهدى وبين لمن تبعه ما يحب الله ويرضى ، فقد كان صلى الله عليه وسلم القدوة المثلى في الدعوة وبيان كيفيتها وأسلوبها ووسائلها ، فها هو يسمع خطيبا يخطب بين يديه فكان مما قاله : « من

---

(٢٤٨) مذكرات الدعوة والداعية حسن البنا . دار الشهاب ، ص ١١٣

يطع الله ورسوله فقد رشد ، **ومن يعصهما فقد غوى** » فقال له رسول الله ﷺ :
(**بئس الخطيب أنت ، قل : ومن يعص الله ورسوله فقد غوى**) (٢٤٩) .

فهذا الخطيب قد قاطعه الرسول ﷺ ، وقبح قوله وشنع فعله أمام الناس ، لكن الرسول ﷺ لم يشخص الداء ويترك الدواء ، فقال له بعد أن بين خطأه وَعَرَّفَهُ له : (قل ومن يعص الله ورسوله فقد غوى) أي لا تجمع الرسول والله في ضمير واحد حتى لا يظن أن منزلة الرسول كمنزلة الله .

ويأتي رجل إلى رسول الله ﷺ فيقول له : « **ما شاء الله وشئت** » فقال له الرسول ﷺ : (**أجعلتني لله نداً (وفي لفظ عدلاً) . لا بل ما شاء الله وحده**)(٢٥٠) .

إن قول الرجل : ما شاء الله وشئت ، يعتبر شركاً لأنه يوهم أن مشيئة العبد كمشيئة الله جل جلاله ، وسبب ذلك القرن بين المشيئتين بحرف العطف الواو التي تفيد الجمع والمشاركة في الحكم ، لذلك كان قول الرسول : أجعلتني لله نداً ، أي سويتني بالله رب العالمين ، وهذا بيان لخطأ الرجل وانحرافه ثم أتبع ذلك ببيان وجه الحق في المسألة فعلمه ماذا يقول،فقال له:قل ما شاء الله وحده ، وفي مكان آخر بين الرسول ﷺ هذا الأمر فقال : (**لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان ، ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان**) .

من هذه الأمثلة وغيرها ـ ولو استقصيناها لملأت مجلداً ـ نرى أن سبيل الرسول ﷺ في الدعوة بيان الخطأ وتشخيص الداء ثم تقديم البديل الصحيح والتصور الإسلامي ، وهذا معلوم بداهة فإن الإسلام لم يَقُمْ على أنقاض

---

(٢٤٩) أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي والبيهقي وأحمد

(٢٥٠) أخرجه البخاري في الأدب المفرد وأحمد وابن ماجه ، وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم ١٣٨ .

الجاهلية ، وترقيع ما أفسدته ، ورأب ما مزقته بل لا بد من تقويض أركانها فيخر بنيانها ثم إبعادها ونسفها من الواقع نسفاً .

إن الإسلام عندما أمر المسلمين فعل الصالحات واجتناب المنكرات ، إستأصل وجود السيئات ، ومنع السبل المؤدية إليها والدالة عليها ، فلم يبن المساجد ويترك بيوت الكهانة ، ولم يمنع الزنا ويترك رايات البغايا فوق مواخير البغاء . ولم يحرم معاقرة الخمور ويترك الحانات أبوابها مشرعة .

ولو فعل ذلك ـ وحاشاه ـ هل يعقل أن يصلح المجتمع ويربو عن الفساد ، ويبتعد عن سبل الشيطان ؟ ! إن من فعل هذا فمثله كمثل رجل ألقى غلاماً في الماء ، ويقول له : حذار أن تبتل بالماء .

من هذه الأسس يتبين أن معرفة الخطأ والتحذير منه واجبة ، ليتم اجتنابه أولا على حد قول الشاعر الحكيم :

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه
ومن لم يعرف الشر من الخير يقع فيه

ولقد كان حذيفة بن اليمان يقول : (**كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير ، وكنت أسأل عن الشر مخافة أن يدركني**) [٢٥١] .

وليستقيم ويتم أمر الدعوة ثانيا ، فلا يكفي تعليم السنة وتعريفها للناس ، بل لا بد من معرفة ما يناقضها من البدع ، كما لا يكفي في الإيمان

---

(٢٥١) أخرجه الشيخان وغيرهما

التوحيد ، دون معرفة الشرك ، وإلى هذه الحقيقة أشار الله سبحانه وتعالى : ﴿ فَمَن يَكْفُر بِالطَّـٰغُوتِ وَيُؤمِنْ بِالله فَقَدِ آستَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لها وَآلله سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [٢٥٢] . ورسوله ﷺ بقوله : (من قال لا إله إلا الله ، وكفر بما يبعد من دون الله ، حرم ماله ودمه وحسابـه على الله) [٢٥٣] . فلم يكتف الله ورسوله بالتوحيد بل ضم إليه الكفر بما سواه ، وهذا يستلزم معرفة الكفر والتحذير منه ، وإلا وقع المسلم فيه من حيث لا يشعر ، قال تعالى : ﴿ وَمَا يُؤمِنُ أَكْثَرُهُم بِآلله إلَّا وَهُم مُشرِكُونَ ﴾[٢٥٤] وكذلك القول في السنة والبدعة ولا فرق ، وكذلك في الصواب والخطأ ، وهذا أمر مشهود في الواقع فإنه لا تتم معرفة الشيء إلا بمعرفة نقيضه ، ومن رضع الدعوة من آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ علم يقيناً أن هذه سبيل الدعوة إلى الله تعالى وما دونها فنظر قاصر . وثمار فجة لعقول لم تستنر بنور الإسلام ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور .

فقد أمر الله سبحـانه وتعـالى باتبـاع سبيل المؤمنـين ، ومفارقـة سبيل المجرمين ، وفصل الآيات وضرب الأمثال لتستبين سبيل المجرمين ، فلو كانت سبيل المؤمنين واضحـة دون معرفـة سبيل المجـرمين ، فـما الحاجـة إلى ذلك لتفصيل الرباني الذي امتن فيه على الدعاة ؟ قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلأَيٰتِ ، وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [٢٥٥] .

---

(٢٥٢) البقرة : ٢٥٦

(٢٥٣) اخرجه مسلم

(٢٥٤) يوسف : ١٠٦

(٢٥٥) الأنعام : ٥٥

ومن المفاسد في قول الأستاذ سعيد الآنف ، وصفه للعمل الإسلامي بالمعاصرة ، وهذا بطر الحق وغمط الناس حيث اعتقدوا أن عملهم هو دعوة الإسلام في العصر الحاضر ، وما دونهم جماعات لا يجوز أن تنتسب إلى الإسلام إلا تحت لوائهم وعن طريقهم ، فها هو المرشد العام يصرح بهذا الأمر دون مواربة ، قائلا : « دعوة الإخوان المسلمين أو دعوة الإسلام في القرن الرابع عشر » (٢٥٦) ، وهذا التصور قادهم إلى البداية من نقطة الصفر دون التفات إلى الدعوة الإسلامية عبر القرون الخالية ، وكأنهم جزء مبتور من الأمة الإسلامية ، أو جماعة لا تاريخ لها ، ومن هنا جاء قول سعيد:« إننا نملك بفضل الله نقطة البداية الصحيحة وهي الانطلاق من اجتهاد إنسان لا يشك عارفوه أنه من أولياء الله عز وجل وهو الأستاذ البنا رحمه الله وعلينا أن ننطلق بدفعة التجديد في هذه الأمة مهما كلفنا ذلك » (٢٥٧) .

فبداية الدعوة الإسلامية هو حسن البنا رحمه الله ، وتاريخ مليء بالعلماء الدعاة رحمهم الله ذهب أدراج الرياح ، ولفه بحر النسيان وتوارى في أغوار الدهر السحيقة ، يالله ثلاثة عشر قرنا أصبحت نسياً منسياً ! ! وولدت الدعوة الإسلامية يوم مولد حسن البنارحمه الله .

ووصف سعيد هذه البداية بأنها هي الصحيحة يضيف سوءً إلى غلوه ، فهل هذا يعني أن البدايات التي سبقت دعوة الإخوان غير صحيحة ؟ !

إن بداية الدعوة الإسلامية من يوم أن اختار الله جل جلاله محمداً ﷺ داعيا الى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وليس يوم ولد حسن البنارحمه الله ، ومن ثم

---

(٢٥٦) مجموعة رسائل البنا ، المؤسسة الإسلامية طـ ٢ ص ١٧٥
(٢٥٧) تربيتنا الروحية ص ١٤٥ ـ ١٤٦

فليس هناك وصف للدعوة بأنها معاصرة أو غير معاصرة ، فالدعوة الإسلامية امتداد لمنهج الحق الذي سار أول خطوة فيه رسول الله ﷺ ، فتابع من اهتدى ، وشذ من ضل .

من الحقائق السابقة نتبين أن حسن البنا رحمه الله إختار مجالات الدعوة ليجتهد فيها ، وهي مواطن لا يجوز الاجتهاد فيها ، **لأن الدعوة الإسلامية توقيفية** .

إن الإخوان يعتبرون أنفسهم البداية الصحيحة للدعوة الإسلامية ، وهذا يقتضي أمرين أهونهما شر ، وأحلاهما مر . أما أحدهما فهو القول أن الدعوة الإسلامية لم تكن موجودة وهذا هو الضلال البعيد ، وأما الآخر فهو الاعتقاد أنهم الدعوة الصحيحة وغيرها باطل ، وهذا هو التعصب الحزبي الذي يفرق المسلمين إلى أحزاب كل حزب بما لديهم فرحون ، ويقود إلى تقديس الأشخاص واعتقاد عصمتهم ، وهذا الذي نراه من سلوك الإخوان الذي أحكموه بقولهم : « عرفنا الجنة عن طريق البنا » ، وبعضهم يقول « عرفنا الجنة في طريق البنا » ، وأكدوه بقول سعيد : « إننا نملك بفضل الله نقطة البداية الصحيحة وهي الانطلاق من اجتهاد إنسان مجدد لا يشك عارفوه أنه من أولياء الله عز وجل وهو الأستاذ البنا رحمه الله وعلينا أن ننطلق بدفعة التجديد في هذه الأمة مهما كلفنا ذلك » (٢٥٨) .

---

(٢٥٨) أنظر تعليق رقم ٢٥٧

ثانيا ـ الوصاية على فكر البنا رحمه الله

المرشد العام الذي مضت بعض مواصفاته كما تراها مراجع الإخوان وعلى رأسهم الأستاذ سعيد حوى ، والذي تعتبر البيعة له واجبة على كل مسلم ، وله حق الطاعة المطلقة ، قال سعيد : « فهل رأى أحد في هذه الأمة رجلا كحسن البنا ؟ وهل رأى الجيل الحاضر رجلا أصلب من حسن الهضيبي ، وان لخليفة الإثنين في أعناقنا لبيعة » [(٢٥٩)]

هذا المرشد يحاول سعيد أن يفرض نفسه وصيا على فكره ، ووارثاً لعلمه واجتهاداته ، ومحاميا عن كتبه ، وإليك حقيقة قولنا ، ودليل استنباطنا ، وخلفية تصورنا .

١ ـ تصريحه بأن كتبه أسسها على فهمه لشريعة الله ، وعلى اجتهادات حسن البنا رحمه الله فقط ، دون الاستفادة من كتب الفقه الإسلامي على مر العصور ، فضلا عن المكتبة الإخوانية ، قال:« وهذا الكتاب مع اخوته في هذه السلسلة بنيته على فهمي لشريعة الله وعلى اجتهادات حسن البنا رحمه الله ، فالأساس فيه ذاك » [(٢٦٠)] ويقول : « إن أجيالا كثيرة في هذه الأمة قد حيل بينها وبين أن تعرف حسن البنا وفكرته ودعوته ومن حق هذه الأجيال أن تعرف ومن **واجبنا أن نعرف ، خاصة وأن المسلمين ليس أمامهم إلا فكر الاستاذ البنا إذا ما أرادوا الانطلاق الصحيح** » [(٢٦١)] .

٢ ـ اقتباس بعض كلمات المرشد العام وتضخيمها ، وتلميعها ،

---

(٢٥٩) المدخل إلى دعوة الإخوان المسلمين ص ٣٠

(٢٦٠) دروس في العمل الإسلامي ص ٩

(٢٦١) في آفاق التعاليم ص ٥

وجعلها عنوانا لبعض مؤلفاته ، فها هو يحكي قصة اضطرابه في اختيار عنوان كتابه تربيتنا الروحية : « أزمعت أن أخرج هذه الرسالة تحت عنوان/ تصوف الحركة الإسلامية المعاصرة/ ثم فكرت أن أخرجها تحت عنوان / الحياة الروحية لجند الله/ ولكن لملابسات متعددة جعلتها تحت عنوان/ تربيتنا الروحية/ وإنما ذكرت هذه الملاحظة هنا لأن مضمون الرسالة قد يكون مرتبطاً بالعنوان الأصيل فليلاحظ القارىء ذلك » (٢٦٢) وها نحن أولاء نلبي طلبه ونلاحظ ونستشف أشياء من وراء الكلمات لأن الفكر أساس السلوك ، والسلوك مرآة الفكر .

ودعنا نربط بين العنوان الأصيل للرسالة « تصوف الحركة الإسلامية المعاصرة » والعنوان الطارىء الذي استوت عليه « تربيتنا الروحية » ونقول إن المقصود هو اشعار القارىء أن تربية الإخوان المسلمين من الناحية الروحية صوفية . وهذه صياغة لقول حسن البنا الذي أودعه رسالة التعاليم ، شارحاً مرحلة التكوين ، « ونظام الدعوة في هذا الطور صوفي **بحت من الناحية الروحية** » .

ويأتي سعيد ويجعل ذلك عنوان كتابه « تربيتنا الروحية » ، ويملأه بترهات وأباطيل وشطحات التصوف عبر العصور والتي قتلها علماء الإسلام بحثاً .

إن هذا الأسلوب الذكي الذي يسلكه سعيد حوى يلجم أفواه الإخوان المسلمين إذا أرادوا الاعتراض على ضلالاته المبثوثة في ثنايا هذا الكتاب ، فيقول لهم : إن مرشدكم ومؤسس دعوتكم الذي أعطيتموه ثمرة قلوبكم ، وصفقة أيديكم ، يصرح أن تربيتكم الروحية هي الصوفية البحتة ، الخالصة

(٢٦٢) تربيتنا الروحية ص ٥

النقية ، وها هي أنقلها من كتب المتصوفة كما هي ، فَيُلْقِمَهم حجراً لأنه يعلم جيداً طبيعة تفكير الإخوان ، فهم لا يحيدون قيد أنملة عن تعاليم المرشد العام عند المناقشة .

ويأتي إلى تعاليم المرشد المسطورة في رسالة التعاليم ، والتي تعتبر الف باء جماعة الإخوان المسلمين ، وخلاصة تفكير المرشد العام ، ويعرض عضلاته في شرحها تحت عنوان « في آفاق التعاليم » ويتخذها مطية لتمرير صوفيته وحنفيته وأشعريته ، ومن ثم ليلزم الإخوان بكل تناقضاته وشذوذاته ، التي جمعها ، فإن اعترض أخ مسلم حكى انتفاخاً صولة الأسد .

ولقد اقتحم حسن البنا ميـدان السياسـة شاهـرا سيفه بـالنذيـر لسان الإخوان الناطق ، وكذلك فعل سعيد حوى عندما أطلق اسم النذير على النشرة التي تحمل أنباء مآسي الإخوان في بلاد الشام .

ثالثـاً ـ ماذا يريـد ؟

إذا ربطنا بين غلو سعيد في حسن البنا رحمه الله ، ووصايته على فكره ، يتضح لنا غرض سعيد من ذلك وعلمنا أنه ادعاء للإمامة ومرتبة المرشد العام بشكل ذكي ، وطريقة محنكة ، فهو قد وضع نفسه موضع المرشد العام ، وهو يرى نفسه من خلال شخصيـة المرشد العام ، وخاصة في غيبة المرشد العام للإخوان المسلمين ، ورواج أسطورة المرشد العام المجهول ، مجهول العين والحال .

الإخوان المسلمون جماعة المسلمين

الفهم الخاطىء ، والغلو المتشدد لفكر البنا قاد الإخوان إلى الانحراف في تصور الجماعة ، فاعتقدوا أنهم جماعة المسلمين ، وليسوا جماعة من المسلمين . . . وترتب على ذلك من حق الجماعة في اعتبار مرشدها إمام جماعة المسلمين ، ورجالها « أولي الأمر والنهي » ، و « أصحاب الحل والعقد » في المجتمع الإسلامي .

وهذا التصور رافق الإخوان منذ أيامهم الأولى ، حيث خاطب المرشد العام الشباب قائلا : « أيها الشباب : لعل من أخطر النواحي في الأمة الناهضة ـ وهي في فجر نهضتها ـ اختلاف الدعوات ، واختلاط الصيحات ، وتعدد المناهج ، وتباين الخطط والطرائق ، وكثرة المتصدين للتزعم والقيادة ، وكل ذلك تفريق الجهود وتوزيع للقوى يتعذر معه الوصول إلى الغايات . ومن هنا كانت دراسة هذه الدعوات والموازنة بينها أمراً أساسيا لا بد منه لمن يريد الإصلاح .

ومن هنا كان واجبي أن أشرح لكم في وضوح موجز دعوة الإسلام في القرن الهجري الرابع عشر » وبدأ قائلا «دعوة الإخوان المسلمين أو دعوة الإسلام في القرن الهجري الرابع عشر » (٢٦٣) .

وتفسير ذلك أن الإخوان يمثلون الإسلام وحدهم لأن للإسلام دعوة واحدة . ويؤكد البنا هذا المفهوم عندما قسم المسلمين إلى أربعة أقسام : « مؤمن ، متردد ، نفعي ، متحامل » (٢٦٤) .

---

(٢٦٣) مجموعة رسائل البنا ، المؤسسة الإسلامية ـ بيروت ص (١٧٤ ـ ١٧٥)
(٢٦٤) الرسائل الثلاث ، حسن البنا ص ٦

والمفهوم العملي لهذا التقسيم أنه ليس أمام أي إنسان إلا أن يضع نفسه في أحد موضعين ، فإما أن يكون متحاملا على الإخوان ، وإما أن يكون مؤمنا أي أن يكون أخا مسلماً ، ويوضح هذا حسن البنا في رسالته إلى الشباب قائلاً « على هذه القواعد الثابتة وإلى هذه التعاليم السامية ندعوكم جميعا ، فإن آمنتم بفكرتنا ، واتبعتم خطواتنا ، وسلكتم معنا سبيل الإسلام الحنيف ، وتجردتم من كل فكرة سوى ذلك ، ووقفتم لعقيدتكم كل جهودكم فهو الخير لكم في الدنيا والآخرة ، وسيحقق الله بكم إن شاء الله ما حقق بأسلافكم في العصر الأول ، وسيجد كل عامل صادق منكم في ميدان الإسلام ما يرضي همته ويستغرق نشاطه إذا كان من الصادقين .

وإن أبيتم إلا التذبذب والاضطراب ، والتردد بين الدعوات الحائرة والمناهج الفاشلة ، فإن كتيبة الله ستسير غير عابئة بقلة ولا كثرة ، « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » (٢٦٥) .

وانطلاقا من هذا تكون جماعة الإخوان المسلمين هي ملتقى المؤمنين ، قال سعيد: « وقد أراد الأستاذ البنا رحمه الله من حركة الإخوان المسلمين **أن تكون دعوتهم هي القاسم المشترك بين المسلمين ، وان تكون الإطار الذي يضم عامة المسلمين ،** ووضع كل الأسس النظرية والعملية لذلك بحيث أن الناظر لا يستطيع أن يوجد صيغة أكمل من هذه الصيغة للقاء إسلامي صادق ، وقد أمر الأستاذ البنا الإخوان أن يقدموا لبقية الإسلاميين الحب * لأنه الطريق الوحيد لإزالة الخلاف وتوحيد الصف .

---

(٢٦٥) مجموعة رسائل البنا ص ١٨١

* الحب والمودة ثمرة لإزالة الخلاف وتوحيد الصف ، وسبيل ذلك الإلتقاء على كلمة سواء . ومنهج واضح . والواقع المشاهد أعظم برهان .

ولازالت دعـوة الإخوان المسلمـين وحـدهـا هي الجسم الـذي عـلى أساسه ، يمكن أن يتم التجمع الإسلامي في العالم ، إذ لا يمكن لطريقة صوفية ولا لمذهب واحد ولا للتبني في الفرعيات أن يكون هو الأساس ، ولأن الإخوان بما لهم من انتشار واسع هم القادرون على أن يكونوا أداة الوصل بين الناس ، ويساعد على هذا أن تركيب الإخوان يفسح لهم بالتطور وتبني الأفضل » (٢٦٦)
إن هذا الشرح الذي قدمه سعيد يعني في المفهوم الإسلامي أن الإخوان جماعة المسلمين من فارقها فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه ، وإمامها هو إمام أهل الحل والعقد في الإسلام ، والخروج عليه هو خروج على الإسلام ذاته .

ظل هذا المفهوم الخاطىء ، والتصور الفاسد قابعـاً وراء التصريحـات الغامضة ، والألفاظ العائمة لحسن البنا رحمه اللهالذي نسجعلى منوال قدامى الصوفية حيث يريد أن يمسك العصا من وسطها ، فأوقع نفسـه في التناقض المفتعل ، وجاء سعيد حوى وارث البنا ، ومفسر أقواله ، ومحـامي أفكاره ، فوضع النقاط على الحروف ، وها هي أقواله ناطق صدق وشاهد عدل يشهد عليه أمام الله بأنه أعلن الحرب على المسلمين حين وضعهم في صفوف المرتدين لأنهم لم ينضموا إلى جماعة الإخوان المسلمين ، ولم ينضووا تحت لواءها ، ولم يعقدوا البيعة لإمامها ومؤسسها حسن البنا رحمه الله .

إذا كان الأمر كما هو مشاهد فإن السكوت عن هذه الأباطيل انحراف عن سبيل المؤمنين الذين يقولون الحق ولا يخافون لومة لائم ، لذلك فإننا ندعوا الباحثين أن يمتشقوا حسام العلم ويتسنموا غارب الحقيقة ليذبوا عن دين الله تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين . الذين عقدوا ألـوية البدعة ، وأطلقوا عقال الفتنة ، وأوقدوا نار الحرب .

---

(٢٦٦) دروس في العمل الاسلامي ص ١٩

أولا - تردد مقصود

قال سعيد : « المرشد الأول والثاني للإخوان لم يعتبرا من سوى الإخوان خارجاً عن جماعة المسلمين . ومع أنه لم يزل فقهاء الدعوة المعتمدون يعتبرون الإخوان المسلمين جماعة من المسلمين ، تسعى لأن تتحقق بمواصفات جماعة المسلمين ، مع أن فقهاء الدعوة المعتمدين يعتبرون أن الأمر كذلك . فإن الأدلة كلها - كما سنرى - تدل على أن هذه الجماعة هي أقرب الجماعات على الإطلاق لأن تكون جماعة المسلمين ، ولا ندعي العصمة ، ولكن غيرنا كذلك غير معصوم » (٢٦٧) .

ثانيا - إقدام وغلو

لم يلبث سعيد حوى ملياً حتى أفصح عن خبايا نفسه ، وصرح بالاعتقاد الذي يكمن في قلوب الإخوان المسلمين - والصراحة راحة - ، فقال - وشر القول إدعاء بلا دليل ، وشر الدعاوى مخالفة الواقع - « فلنر ما هي مواصفات الجماعة التي يصح أن نعتبرها جماعة المسلمين ؟ ولنر ما اذا كانت هذه المواصفات منطبقة على جماعة الإخوان المسلمين كما أقامها حسن البنا ، وليحاسب كل مسلم نفسه بإنصاف ولتحاسب كل مجموعة نفسها بإنصاف فلا تدعي ما ليس لها * .

مواصفات جماعة المسلمين

إن جماعة المسلمين هي :

١ - الجماعة التي تحمل الإسلام بلا احتراس ولا احتراز .

---

(٢٦٧) المدخل إلى دعوة الإخوان المسلمين ص ٢١

* الأستاذ سعيد رجل دعوة ، ومكانته تحتم عليه أن يكون من أكثر الناس تروياً وإنصافاً ، وهو كما لا يحب أن يظلم الإخوان ، ويريد لمن يكتب عنهم ويدرسهم دراسة مجهرية واعية أن يكون على علم ، وأن يقول كلمة الحق ، كان ينبغي أن يكون أول من يطبق ما يدعو إليه

٢ ـ الجماعة التي ظهرت بها الآن صيغة الحق الوحيدة المتعارف عليها خلال التاريخ ، والمتمثلة بأهل السنة والجماعة .

٣ ـ الجماعة التي تستطيع أن تطرح صيغة الحق التي يمكن أن يجتمع عليها المسلمون .

٤ ـ الجماعة التي تتحرك في إطار عملي نحو تحقيق الأهداف الإسلامية وبطريق ذلك .

٥ ـ الجماعة التي تحاول تحرير المسلمين من أمـراضهم التي أدت إلى إذلالهم ودوس كرامتهم .

٦ ـ الجماعة التي يتحقق كل فرد من أفرادها بالصفات العليا لحزب الله : من محبة لله ، إلى ذلة على المؤمنين ، إلى عزة على الكافرين ، إلى جهاد في سبيل الله ، إلى إخلاص الولاء لله وللرسول والمؤمنين .

٧ ـ الجماعة التي لا ينسى أفرادها أخوتهم لكل مسلم ولا يبخسون أهل الفضل فضلهم ، ولا يتكبرون عن الحق .

والدليل على أن هذه كلها مواصفات لا بد منها للجماعة التي يجب على كل مسلم أن يضع يده بيدها ـ وهي متوفرة في جماعة الإخوان المسلمين ـ ثم يذكر بعض الآيات والأحاديث التي خُيِّل إليه أنها تـدعم حجته ثم قـال : « وكتابنا « جند الله ثقافة واخلاقاً » ذكر مواصفات حـزب الله كما وردت في القرآن ، وأن الإخوان المسلمين هم الذين اجتمعت لهم هذه الصفات ـ بفضل الله نظريا ، ويحاولون أن يتحققوا بها عملياً ، بينما نجد غيرهم يفر من التبني النظري ولا عمل إلا ويسبقه علم » (٢٦٨) .

---

(٢٦٨) المدخل إلى دعوة الإخوان المسلمين ص ٢٢ وما بعدها

ويكرر هذا المعنى قائلا : « قال ﷺ في الحديث المتفق عليه لحذيفة « أن تلزم جماعة المسلمين وإمامهم » إن الأصل الذي لا يجوز أن يغيب عن المسلم هو أنه لا بد للمسلمين من جماعة وإمام وأن الواجب الكبير على المسلم أن يكون ملتزما بجماعة المسلمين وإمامهم ، وهذا هو المفتاح الأول لفهم قضية الإخوان المسلمين ، فقد ضاعت فكرة الجماعة الإسلامية أصلا ، وغاب عن المسلمين الطريق الصحيح للوصول إلى الجماعة والإمام ووفق الله عز وجل حسن البنا إلى رسم الطريق الكامل للوصول إلى الجماعة والإمام باعتماد كل ما يلزم لذلك وبالسير العملي لما يحقق ذلك إذ إنه حتى تعتبر مجموعة ما جماعة المسلمين فإن ذلك يقتضي توافر شروط كثيرة في فهمها ووعيها وصفاء قيادتها ، ولا نعلم أن مجموعة ما في عصرنا توافرت فيها هذه الأمور كالجماعة التي أقامها الأستاذ البنا ـ ويختصر ما ذكره في المدخل ـ وجماعة الإخوان هذا شأنها » (٢٦٩) .

ثالثا ـ فكر البنا هو المقياس

وإذا كان الإخوان وعلى رأسهم سعيد حوى يعتقدون أنهم جماعة المسلمين ، فإنهم يعتبرون فكر مرشدهم هو الميزان الذي توضع به الجماعات الإسلامية لترى وزنها وحجمها ، فالإمام الشهيد ـ كما يحلوالهم أن ينعتوه ـ أول من فطن إلى إحياء العمل الإسلامي : « ولا نعلم أنه من بين خلق الله من فطن لهذا كله ولغيره من شروط جماعة المسلمين كما فطن إلى مجموع ما يلزم لتحقيق الجماعة الإسلامية أهدافها على كل مستوى من صياغة للمسلم إلى إقامة للدولة المسلمة في كل قطر إلى الوصول للدولة الإسلامية العالمية كحسن البنا رحمه الله » (٢٧٠) ، وكذلك فهو أول من وضع قدم المسلمين على الطريق الصحيح :

---

(٢٦٩) في آفاق التعاليم ص ١٥

(٢٧٠) من أجل خطوة إلى الأمام ، ص (٣٦ ـ ٣٧)

« وفي هذه السلسلة أثبتنا بما لا يقبل جدلا عند المنصفين أن أحداً لم يضع قدم المسلمين في هذا العصر في طريق تحرير الإسلام من الوهن ثم في الطريق إلى جماعة المسلمين ، وإمام تتوفر فيه الخصائص كحسن البنا رحمه الله » [٢٧١] ، وهذا التعصب يجب أن يأخذ طابع البديهة « وإذ هو في حكم الثابت أنه لم تتوافر في إنسان معاصر مجموعة الصفات التي تحققت في حسن البنا فإنه رحمه الله يكاد يكون وحده هو المرشح لطرح نظريات العمل الإسلامي المعاصر .

إن هذا ينبغي أن يأخذ عندنا طابع البديهة ، على أن ذلك لا يعني العصمة لحسن البنا رحمه الله » [٢٧٢] .

إذن ففكر البنا هو المقياس ، ولن تفلح مجموعة خالفت هذا الأساس قال : « خاصة وأن المسلمين ليس أمامهم إلا فكر الأستاذ البنا إذا ما أرادوا الإنطلاق الصحيح » [٢٧٣] ، ويقول أيضا : « إننا لا نرضى لأنفسنا أن ننطلق بعيدا عن سير الأستاذ البنا لأن التفريط في ذلك تفريط في السير الصحيح لنصرة الإسلام في هذا العصر » [٢٧٤] .

رابعاً ـ جماعات ضالة ونظرات قاصرة ومحاولات فاشلة

إذا كان أمر جماعة الإخوان كذلك فمن الطبيعي أن يعتبروا أنفسهم ملتقى المؤمنين « ولا زالت دعوة الاخوان وحدها هي الجسم الذي على أساسه يمكن أن يتم التجمع الإسلامي في العالم » [٢٧٥] .

---

(٢٧١) المصدر السابق ص ٣١
(٢٧٢) في آفاق التعاليم ص ١١
(٢٧٣) المصدر السابق ص ٥
(٢٧٤) المصدر نفسه ص ١٢
(٢٧٥) دروس في العمل الإسلامي ص ١٩

ولن تفلح جماعة خالفت فكر المرشد المؤسس ولن تقوم للمسلمين قائمة إلا بفكر حسن البنا « ولكن الأيـام ستكشف ـ والله أعلم ـ أنه لن تستـطيع الحركة الإسلامية ولا في طور من أطوارها سواء قبل الدولـة أو بعدهـا أو في السياسة الداخلية أو في السياسة الخارجية للدولة الإسلامية أو في التربية أو في التكوين أو في الاستراتيجية والحركة أن تستغني عن فكر الأستاذ البنا رحمه الله ولئن كان البنا بمجموع ماحباه اسه عز وجل هو المـرشح الـوحيد لأن يـطرح نظريات العمل الإسلامي فالدعوة التي أقامهـا تركيب ذو نسب معينـة فمتى اختلفت هذه النسب حدث الفساد » (٢٧٦) . لأن هذه الجماعات باطلة أو لم يحالفها الحظ في اتباع المنهج الإسلامي الصحيح « ولا شك أن دور الجماعة قبل السلطة وبعدها هو المنظم لهذا كله ، ونقصد بالجماعة هنا جمـاعة المسلمـين ونعتقد أنه لا جماعة كـاملة للمسلمين إلا بفكـر الاستاذ البنـا وإلا بنظريـاته وتوجيهاته التي من جملتها الحب لكل العاملين المخلصين » (٢٧٧) . وإذا حاول مسلم أن يناقش ويصلح سعوا ليكيلوا له أطنان التهم ، وأمتـاراً مكعبة من القول الفاسد الفارغ وقالوا فيه ما لم يقله مالك في الخمرة : « ثم إنه قد نبتت هنا وهناك أفكار مريضة تريد أن تتخلص من دعوة حسن البنا ومن أفكاره فكان لا بد أن يعرف هؤلاء وغيرهم أن الانطلاقة على غير فكر الأستاذ البنا في عصرنا قاصرة أو مستحيلة أو عمياء إذا ما أردنا عملا كاملا متكاملا في خدمة الإسلام والمسلمين » (٢٧٨) .

ويبلغ الغلو أقصاه ، والشطط منتهاه في هذه العبارات الصريحة التي لم

---

(٢٧٦) في آفاق التعاليم ص ١٣

(٢٧٧) جولات في الفقهين ص ٧٩

(٢٧٨) في آفاق التعاليم ص ٥

تتق الله في تقولها على الله ودينه ، وهي تزعم أن الكمال الإسلامي في مبادىء الإخوان المسلمين ، وكأن تعاليم البنا كتعاليم القرآن لا يجوز مخالفتها ، وكأن الذي يرد على البنا يرد على المعصوم صلى الله عليه وسلم : « والبيت المسلم الكامل هو الملتزم بمبادىء الإخوان المسلمين لأن ذلك هو الكمال الإسلامي المعاصر ولذلك جعل الأستاذ البنا من واجبات الأخ العامل إلزام المنزل بمبادىء الإخوان المسلمين » (٢٧٩) .

خامسا - وجوب العمل تحت راية الإخوان المسلمين

إذا كان الإخوان جماعة المسلمين ، ومرشدهم إمام جماعة المسلمين ، وكل جماعة غيرهم باطلة ، فقد أوجبوا على كل مسلم الانضواء تحت لواءهم والانضمام إلى صفوفهم ، وعقد البيعة لإمامهم : « وبسبب ما ذكرنا نقول : إن جماعة الإخوان لا غيرها هي التي ينبغي أن يضع المسلم يده في يدها » (٢٨٠)

ويقول أيضا:« مما مر ندرك أن السير مع الإخوان شيء لا بد منه للمسلم المعاصر » (٢٨١) . ويضيق واسع رحمة الله قائلا : « وبهذا لا يسع مسلماً أن يتخلف عن هذه الدعوة » (٢٨٢)

سادسا - هوة التكفير

عندما يضطرب عقل الإنسان يختل تفكيره ، ويفقد توازنه ، فيلقي الأقوال على عواهنها ، ويصدر الأحكام كما يحلو له ، وتهوي به ألفاظه التي لا

---

(٢٧٩) المصدر السابق ص ٢٩
(٢٨٠) المدخل إلى دعوة الإخوان المسلمين ص (٢٩ - ٣٠)
(٢٨١) في آفاق التعاليم ص ١٦
(٢٨٢) المصدر نفسه ص ١٧

يلقى لها بالا إلى مكان سحيق ، وهكذا تردى سعيد حوى في هوة التكفير حينما نعت المتخلف عن صفوف الإخوان بأنه قد خلع ربقة الإسـلام من عنقه : « وإذا كانت الجماعة هذا شأنها فلا يجوز لمسلم الخروج منها قال عليه السلام : « من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه » . . . وعلى كل مسلم ألا ينتسب لتنظيم أو جهة ليست من الجماعة لأن الطاعة لا تجوز إلا لأولي الأمر من المسلمين وتحرم على غيرهم إختياراً قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين اوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين » (٢٨٣) .

العقيدة أولا لو كانوا يعلمون

إن وضع الإخوان فوق مستوى النقص بوصفهم جماعة المسلمين ادعاء لا يستقيم أمره لأسباب علمية ، وأخرى عملية ، فأمـا العلمية فمن أفـواههم ندينهم ، لذلك دعنا نطبق مواصفات جماعة المسلمين التي ذكرها سعيد زاعماً أنها متحققة في الإخوان المسلمين ، وأنهم متصفون بها ، وسنختار أهمها خشية الإطالة . فمن هذه المواصفات قوله : « الجماعة التي ظهرت بها الآن صيغة الحق الـوحيدة المتعـارف عليهـا خـلال التـاريـخ ، والمتمثلة بـأهـل السنـة والجماعة » .

إن أهل السنة والجماعة تنازعته فرق كثيرة * ، فكيف يعرف أهل السنة من بين الفرق ؟ وما هي سيماهم التي تميزهم عن أهل البدع ؟

إن العلماء يستدلون على أهل السنة بحبهم أصحاب الحديث ، فقالوا : اذا رأيت الرجل يحب أهل الحديث ، مثل يحيى بن سعيد القـطان ، وعبد

---

(٢٨٣) من أجل خطوة إلى الأمام ص ٤٠

* وقد اعترف . بهذه الحقيقة في كتابه جند الله ثقافة وأخلاقاً ص ١١٦

الرحمن بن مهدي ، وأحمد بن حنبل ، واسحاق بن راهويه . فإنه على السنة ومن خالف فاعلم أنه مبتدع [٢٨٤] .

وذلك أن أصحاب الحديث لم ينحرفوا عن البيضاء النقية ، وهم الفرقة الناجية والطائفة الظاهرة المنصورة .

هذه الميزة الأولى لأهل السنة ، فما هو موقف سعيد حوى منها ؟ إنه لا يقيم لها وزنا ، ويضرب بأقوال علماء المسلمين على مر العصور عرض الحائط ، لأن هذه الحقيقة تعارض تصورات سعيد ، وتفسد عليه أحلامه ، يقول: « أما ما ذهب إليه بعضهم من أن الطائفة المنصورة هم أهل الحديث ، فذلك ليس فيه نص ، وإنما هو فهم لبعض المحدثين ، ولكن حمل الحق والقتال من أجله هو الذي تسنده النصوص » [٢٨٥] .

لقد اتفق أجلاء علماء السلف رحمهم الله الذين سلست بأيديهم أعنة النصوص فاستنبطوا منها كنوزها ، وفجروا أنهار العلوم ، وساروا على منهاج الإسلام القويم ، وهدوا إلى صراط مستقيم على تفسير أحاديث الطائفة الظاهرة بأنهم أهل الحديث وأصحاب الآثار .

وهذا اختيار الخطيب البغدادي رحمه الله فقد ألف كتابه شرف أصحاب الحديث ، وأظهر فيه مناقب أهل الحديث ، وأنهم الطائفة الناجية ، وانتصر لهم ، ورد على من خالفهم قال : « ولو أن صاحب الرأي المذموم شغل نفسه بما ينفعه من العلوم ، وطلب سنن رسول رب العالمين ، واقتفى آثار الفقهاء

---

(٢٨٤) أنظر شرف أصحاب الحديث ، الخطيب البغدادي ، تحقيق دكتور محمد سعيد خطيب اوغلي ، نشر دار إحياء السنة النبوية ص (٧٠ - ٧٤)

(٢٨٥) المدخل إلى دعوة الإخوان المسلمين ص ٢٧

والمحدثين ، لوجد في ذلك ما يغنيه عما سواه ، واكتفى بالأثر عن رأيه الذي رآه ، لأن الحديث يشمل على معرفة أصول التوحيد وبيان ما جاء من وجوه الوعد والوعيد ، وصفات رب العالمين تعالى عن مقالات الملحدين ، والأخبار عن صفات الجنة والنار ، وما أعد الله تعالى فيهما للمتقين والفجار ، وما خلق الله في الأرضين والسماوات من صنوف العجائب وعظيم الآيات ، وذكر الملائكة المقربين ، ونعت الصافين والمسبحين .

وفي الحديث قصص الأنبياء ، وأخبار الزهاد والأولياء ، ومواعظ البلغاء ، وكلام الفقهاء ، وسير ملوك العرب والعجم ، وأقاصيص المتقدمين من الأمم ، وشرح مغازي الرسول ﷺ وسراياه وجمل أحكامه وقضاياه ، وخطبه وعظاته ، وأعلامه ومعجزاته ، وعدة أزواجه وأولاده وأصهاره وأصحابه ، وذكر فضائلهم ومآثرهم وشرح أخبارهم ومناقبهم ، ومبلغ أعمارهم ، وبيان أنسابهم .

وفيه تفسير القرآن العظيم ، وما فيه من النبأ والذكر الحكيم ، وأقاويل الصحابة في الأحكام المحفوظة عنهم ، وتسمية من ذهب إلى قول كل واحد منهم من الأئمة الخالفين والفقهاء المجتهدين .

وقد جعل الله تعالى أهله أركان الشريعة ، وهدم بهم كل بدعة شنيعة ، فهم أمناء الله من خليقته ، والواسطة بين النبي ﷺ وأمته ، والمجتهدون في حفظ ملته ، أنوارهم زاهرة ، وفضائلهم سائرة ، وآياتهم

باهرة ، ومذاهبهم ظاهرة ، وحججهم قاهرة ، **وكل فئة تتحيز إلى هوى ترجع إليه ، أو تستحسن رأياً تعكف عليه ، سوى أصحاب الحديث ، فإن الكتاب عدتهم ، والسنة حجتهم ، والرسول فئتهم ، وإليه نسبتهم** ، لا يعرجون على الأهواء ، ولا يلتفتون إلى الآراء ، يقبل منهم ماورووا عن الرسول ، وهم المأمونون عليه والعدول ، حفظة الدين وخزنته ، وأوعية العلم وحملته ، إذا اختلف في حديث ، كان إليهم الرجوع ، فما حكموا به فهو المقبول المسموع ، ومنهم كل عالم فقيه ، وإمام رفيع نبيه ، وزاهد في قبيلة ، ومخصوص بفضيلة ، وقارىء متقن ، وخطيب محسن ، **وهم الجمهور العظيم ، وسبيلهم السبيل المستقيم ، وكل مبتدع باعتقادهم يتظاهر وعلى الافصاح بغير مذاهبهم لا يتجاسر** ، من كادهم قصمه الله ، ومن عاندهم خذلهم الله ، لا يضرهم من خذلهم ، ولا يفلح من اعتزلهم ، المحتاط لدينه إلى ارشادهم فقير ، وبصر الناظر بالسوء إليهم حسير ، وإن الله على نصرهم لقدير . أخبرنا أبو بكر أحمد ابن عمر الدلال ، قال حدثنا أبو محمد جعفر بن محمد بن نصير الخلدي ، قال حدثنا خلف بن عمرو العكبري ، قال حدثنا سعيد بن منصور ، قال حدثنا عبد الرحمن بن زياد ، قال حدثنا شعبه عن معاوية بن قرة عن أبيه عن النبي ﷺ قال : **(لا يزال ناس من أمتي منصورين ، لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة)** أنبأنا محمد بن أحمد بن رزق البزاز ، قال أخبرنا محمد بن العباس العصمي ، قال حدثنا أبو اسحاق أحمد بن محمد بن يونس الهروي الحافظ ، قال حدثنا عثمان بن سعيد الدارمي قال : قال علي بن المديني في حديث النبي ﷺ: « **لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خالفهم** » **هم أهل الحديث ، والذين يتعاهدون مذاهب الرسول ويذبون عن العلم ،**

لولاهم ، لم تجد عند المعتزلة والرافضة والجهمية وأهل الإرجاء والرأي شيئاً من السنن .

فقد جعل رب العالمين الطائفة المنصورة حراس الدين ، وصرف عنهم كيد المعاندين لتمسكهم بالشرع المتين ، واقتفائهم آثار الصحابة والتابعين ، فشأنهم حفظ الآثاروقطع المفاوز والقفار ، وركوب البراري والبحار في اقتباس ما شرع الرسول المصطفى ، لا يعرجون عنه إلى رأي ولا هوى ، قبلوا شريعته قولاً وفعلاً ، وحرسوا سنته حفظاً ونقلاً حتى ثبتوا بذلك أصلها ، وكانوا أحق بها وأهلها ، وكم من ملحد يروم أن يخلط بالشريعة ما ليس منها ، والله تعالى يذب بأصحاب الحديث عنها ، فهم الحفاظ لأركانها ، والقوامون بأمرها وشأنها ، إذا صدف عن الدفاع **عنها فهم دونها يناضلون ، . . . . أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون** »[٢٨٦] أ هـ

وبعد هذا النقل المطول فقد ساق الخطيب رحمه الله أقوال أئمة السلف رحمهم الله بالأسانيد الصحيحة .

١ - يزيد بن هارون رحمه الله (١١٨ - ٢٠٦)

أخبرني محمد بن الحسن الأهوازي قال حدثنا محمد بن إسحاق بن ابراهيم القاضي بالأهواز ، قال حدثنا الحسن بن عثمان ، قال حدثنا أحمد بن الصباح بن أبي سريج الرازي ، أبو جعفر ، قال حدثنا يزيد بن هارون عن حماد ابن سلمة عن قتادة عن مطرف عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله ﷺ : (لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق حتى تقوم الساعة)

(٢٨٦) شرف أصحاب الحديث ص (٧ - ١٠)

قال يزيد بن هارون : « **إن لم يكونوا أصحاب الحديث ، فلا أدري من هم ؟** »

أورد الشيخ ناصر هذه الرواية بهذا الاسناد وعزاها إلى الرامهرمزي في المحدث الفاصل (٦/١) . وقال « هذا الاسناد رجاله كلهم ثقات من رجال الصحيح غير التستري وليس بثقة ، فاتهم بالكذب وسرقه الحديث ، لكن يظهر أن للحديث أصلاً من غير طريقه فقد ذكره السيوطي في الجامع الكبير(١/٣٤١/١) من رواية ابن قانع وابن عساكر والضياء المقدسي في المختاره عن قتادة عن أنس ، ثم قال البخاري : هذا خطأ إنما هو قتادة عن مطرف عن عمران . قلت(أي الألباني) : فهذا نص من البخاري على أن الحديث محفوظ من حديث عمرانِ بن حصين . واعلم أن الحديث صحيح ثابت مستفيض عن جماعة من الصحابة(وذكرهم) وقال فالحديث صحيح قطعاً ، وإنما أوردته من أجل هذه الزيادة ، وقد عرفت أن سندها إلى يزيد بن هارون ضعيف ، وبهذا الإسناد رواه أبو بكر الخطيب في كتابه « شرف أصحاب الحديث » (ق /١/٣٤)* وقد عزاها الحافظ في الفتح (٢٤٩/١٣ بولاق) إلى الحاكم في علوم الحديث وما أظنه إلا وهماً فإني قد بحثت عنها فيه فلم أجدها ، وإنما وجدت عنده ما يأتي عن الإمام أحمد بيد **أن هذه الزيادة معروفة وثابتة عند جماعة من أهل الحديث من طبقة يزيد بن هارون وغيرهم وذكرهم** » أ هـ[287]

---

* هذا بالنسبة للمخطوطة التي اعتمدها الشيخ ناصر . أما بالنسبة للنسخ المطبوعة بين أيدينا فقد أخرجه الخطيب ص ٢٦

(٢٨٧) سلسلة الأحاديث الصحيحة الألباني ، حديث رقم (٢٧٠)

٢ـ أحمد بن حنبل رحمه الله (١٦٤ - ٢٤١)

● أخبرنا أبو نعيم الحافظ ، قال حدثنا محمد بن جعفر المؤدب ، قال حدثنا عبدالله بن محمد بن الخليل ، قال سمعت الفضل بن زياد يقول : « سمعت أحمد بن حنبل ، وذكر حديث : (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق) فقال : إن لم **يكونوا أصحاب الحديث فلا أدري من هم** ؟ »[٢٨٨]

● حدثني عبدالله بن أحمد بن علي السوذرجاني بأصبهان ، قال : سمعت عبدالله بن أبي القاسم ، يقول سمعت أحمد بن محمد بن واوة ، يقول حدثنا ابراهيم بن محمد الحسن قال : « حدثت عن أحمد بن حنبل وذكر حديث النبي ﷺ : (تفرق الأمة على نيف وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا فرقة) فقال : **إن لم يكونوا أصحاب الحديث فلا أدري من هم** ؟ »[٢٨٩]

● قال أبو عبدالله الحاكم رحمه الله: « سمعت أبا عبدالله محمد بن علي بن عبد الحميد الأدمي بمكة يقول سمعت موسى بن هارون يقول سمعت أحمد بن حنبل يقول وسئل عن معنى هذا الحديث (لا يزال ناس من أمتي . . .) فقال : **إن لم تكن هذه الطائفة المنصورة أصحاب الحديث فلا أدري من هم** ؟ »[٢٩٠]

وإسناد الحاكم صححه الحافظ ابن حجر فقال : « وأخرج الحاكم في علوم الحديث بسند صحيح عن أحمد **إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري** ؟ »[٢٩١] **قلت** : ووافقه الألباني في السلسلة الصحيحة (١/٣/١٣٦)

---

(٢٨٨) شرف أصحاب الحديث ص ٢٧
(٢٨٩) المصدر نفسه ص ٢٥
(٢٩٠) معرفة علوم الحديث ، للحاكم النيسابوري ، منشورات دار الأفاق الجديدة ـ بيروت ، ص ٢
(٢٩١) أنظر فتح الباري (١٣/٢٩٣ ـ سلفية)

قال الحاكم بعد أن ساق تفسير أحمد بن حنبل:« **فلقد أحسن أحمد بن حنبل في تفسير هذا الخبر أن الطائفة المنصورة التي يرفع الخذلان عنهم إلى قيام الساعة هم أصحاب الحديث** ، ومن أحق بهذا التأويل من قوم سلكوا محجة الصالحين واتبعوا أثار السلف من الماضيين ، ودمغوا البدع والمخالفين ، بسنن رسول الله ﷺ وعلى أله أجمعين . . . »[٢٩٢]

٣ ـ علي بن المديني رحمه الله (١٦١ ـ ٢٣٤)

● أخبرنا أبو يعلى أحمد بن عبد الواحد الوكيل ، قال أخبرنا الحسن بن محمد بن شعبة المروزي ، قال حدثنا أبو عيسى الترمذي وذكر حديث معاوية ابن قرة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ :(لا تزال طائفة من أمتي منصورين ، لايضرهم من خذلهم) قال أبو عيسى . قال محمد بن إسماعيل قال علي بن المديني : « **هم أصحاب الحديث** »[٢٩٣]

● أنبانا محمد بن رزق البزاز ، قال أخبرنا محمد بن العباس العصمي ، قال حدثنا أبو اسحاق أحمد بن محمد بن يونس الهروي الحافظ ، قال حدثنا عثمان بن سعيد الدارمي قال : « قال علي بن المديني في حديث النبي ﷺ (لا تزال طائفةمن أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خالفهم) : « **هم أهل الحديث والذين يتعاهدون مذاهب الرسول ويذبون عن العلم . لولاهم لم تجد عند المعتزلة والرافضة والجهمية وأهل الإرجاء والرأي شيئاً من السنن** »[٢٩٤]

---

(٢٩٢) معرفة علوم الحديث ص (٢ ـ ٣)

(٢٩٣) شرف أصحاب الحديث ص ٢٧ . وأبو عيسى هو الترمذي

(٢٩٤) المصدر السابق ص ١٠

● وذكره ابن الجوزي رحمه الله من طريق الترمذي قال : « أخبرنا الكروخي نا النورجي والأزدي قالا نا الحراجي ثنا المحبوبي ثنا الترمذي قال : قال محمد بن إسماعيل ، قال على بن المديني : **هم أصحاب الحديث** »[٢٩٥]

● وذكره السيوطي رحمه الله نقلاً عن كتاب (المحجة على تارك الحجة) للشيخ المقدسي فقال : «وأخرج عن ابن المديني أنه قال في حديث (لا تزال طائفة) : **هم أهل الحديث ، والذين يتعاهدون مذهب الرسول صلى الله عليه وسلم ويذبون عن العلم . لولاهم لأهلك الناس المعتزلة والرافضة والجهمية وأهل الإرجاء** »[٢٩٦]

٤ ـ أحمد بن سنان الحافظ رحمه الله (٠٠٠ ـ ٢٥٦)

أخبرنا أبو نعيم قال حدثنا عبدالله بن محمد بن جعفر ، قال حدثنا محمد بن الفضل بن الخطاب ، قال حدثنا أبو حاتم قال : « سمعت أحمد بن سنان وذكر حديث (لا تزال طائفة من أمتي على الحق)**فقال هم أهل العلم وأصحاب الآثار** »[٢٩٧]

٥ ـ عبدالله بن المبارك رحمه الله (١١٨ ـ ١٨١)

أخبرني عبيدالله بن أبي الفتح والحسن بن أبي طالب ، قالا حدثنا محمد ابن العباس ، أبو عمر الخزاز ، قال حدثنا أبو بكر بن أبي داود ، قال حدثنا أبي عن سعيد بن يعقوب الطالقاني أو غيره قال:« ذكر ابن المبارك حديث النبي ﷺ

(٢٩٥) تلبيس إبليس ، ابن الجوزي ، دار الكتب العلمية ص ١٨

(٢٩٦) مفتاح الجنة في الإحتجاج بالسنة ، السيوطي ، طبعة الجامعة الإسلامية ص ٦٨ .

(٢٩٧) شرف أصحاب الحديث ص ٢٧

: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من نا وأهم حتى تقوم الساعة) ، قال ابن المبارك : **هم عندي أصحاب الحديث** »[٢٩٨]

٦ ـ محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله (١٩٤ ـ ٢٥٦)

أخبرنا أبو نعيم الحافظ ، قال حدثنا أبو محمد بن حيان ، قال حدثنا إسحاق بن أحمد قال : «حدثنا محمد بن إسماعيل البخاري ، وذكر حديث موسى بن عقبة عن أبي الزبير ، عن جابر عن النبي ﷺ : (لا تزال طائفة من أمتي) ، فقال البخاري : **يعني أصحاب الحديث** »[٢٩٩] ، وقال في صحيحه وقد ذكر الحديث معلقاً وجعله باباً : « **وهم أهل العلم** »[٣٠٠] وذكر في « كتاب خلق أفعال العباد » عقب حديث أبي سعيد في قوله تعالى: ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾ هم الطائفة المذكورة في حديث (لا تزال طائفة من أمتي) ، ثم ساقه وقال : « وجاء نحوه عن أبي هريرة ومعاوية وجابر وسلمه بن نفيل وقرة بن إياس » ولا منافاة بين ذلك كله لأن المسلم كلما ازداد فقهاً بالحديث ازداد علماً بالإسلام ورحم الله ابن القيم القائل :

العلم قال الله قال رسوله ... قال الصحابة ليس بالتمويه
ما العلم نصبك للخلاف جهالة ... بين الرسول وبين رأي فقيه

ولله در الحافظ الذهبي الذي أنشد :

الفقه قال الله قال رسوله ... إن صح والإجماع فاجهد فيه
وحذار من نصب الخلاف سفاهة ... بين الرسول وبين رأي فقيه

---

(٢٩٨) المصدر السابق ص ٢٦
(٢٩٩) المصدر نفسه ص ٢٧
(٣٠٠) فتح الباري (١٣/ ٢٩٣ـ سلفية)

٧ ـ الترمذي رحمه الله (٢٠٩ ـ ٢٧٩)

قال:« وتفسير الجماعة عند أهل العلم هم أهل الفقه والعلم والحديث »[٣٠١]

٨ ـ الشاطبي رحمه الله

قال بعد أن ذكر أقوال الناس في تفسير الفرقة الناجية : « وذلك أن الجميع اتفقوا على اعتبار أهل العلم والاجتهاد سواء ضموا إليهم العوام أم لا ، فإن لم يضموا إليهم فلا إشكال أن الاعتبار إنما هو بالسواد الأعظم من العلماء المعتبر اجتهادهم ، فمن شذ عنهم فمات فميتته جاهلية ، وإن ضموا إليهم العوام فبحكم التبع لأنهم غير عارفين بالشريعة ، فلا بد من رجوعهم في دينهم إلى العلماء ، فإنهم لو تمالأوا على مخالفة العلماء فيما حدوا لهم لكانوا هم الغالب والسواد الأعظم في ظاهر الأمر ، لقلة العلماء وكثرة الجهال ، فلا يقول أحد أن اتباع جماعة العوام هو المطلوب وأن العلماءهم المفارقون للجماعة والمذمومون في الحديث ، بل الأمر بالعكس وأن العلماء هم السواد الأعظم وإن قلوا ، والعوام هم المفارقون للجماعة وإن خالفوا ، فإن وافقوا فهو الواجب عليهم ، (وذكر قول ابن المبارك في الجماعة ثم قال) **فانظر في حكايته تبين غلط من ظن أن الجماعة هي جماعة الناس وإن لم يكن فيهم عالم ، وهو وهم العوام ، لافهم العلماء ، فليثبت الموفق في هذه المزلة قدمه لئلا يضل عن سواء السبيل ولا توفيق إلا بالله** »[٣٠٢]

---

(٣٠١) سنن الترمذي ، بتحقيق وشرح أحمد شاكر وغيره طبعة دار احياء التراث العربي (٤/ ٤٦٧)
(٣٠٢) الاعتصام (٢/ ٢٦٧)

وجملة القول أن الطائفة الناجية هم أهل الحديث ، وحسب القارىء أن يستحضر أسماء الأئمة رحمهم الله الذين قالوا بذلك فيزول الشك من قلبه ، وها أنا ذا أسردها وأقربها ليطمئن قلب المسلم الباحث عن الحقيقة .

١ ـ يزيد بن هارون
٢ ـ أحمد بن حنبل
٣ ـ أحمد بن سنان
٤ ـ علي بن المديني
٥ ـ عبدالله بن المبارك
٦ ـ محمد بن إسماعيل البخاري
٧ ـ أبو عبدالله الحاكم
٨ ـ الخطيب البغدادي
٩ ـ أبو عيسى الترمذي
١٠ ـ ابن حجر العسقلاني
١١ ـ السيوطي
١٢ ـ الشاطبي

كل هؤلاء ـ وغيرهم كثير ـ صرحوا أن أهل الحديث هم الطائفة المنصورة ، ولن يضل بإذن الله من اهتدى بهديهم ، وسلك نهجهم ، كيف وهم القوم لا يشقى جليسهم ؟

هذا ولا يهولنَّك قول سعيد حوى : « فذلك ليس فيه نص وإنما هو فهم لبعض المحدثين » ، فإنه يريد أن ينقض على نفسه كيف لا وهو يفسد ظنه ؟

فإذا كان هذا القول إنما هو فهم فهل هذا الفهم مستنبط من نصوص أم من استحسان عقلي وتعصب للهوى وتحيز للمذهب وإن خالف الدليل ؟ فإن قال مستنبط من النصوص فقد هدم ما نطق به حيث اعترف أن هناك نصوصاً تشير إلى هذا الفهم ، وإن ذهب إلى القول الآخر فقد كشف عن سوء نيته ، وفساد طويته التي تحتقر أصحاب الحديث ، الذين صاحبوا أنفاس رسول الله ، والذين قال فيهم الإمام الشافعي رحمه الله: « إذا رأيت رجلاً من أصحاب الحديث ، فكأني رأيت النبي ﷺ حياً » أخرجه الخطيب البغدادي رحمه الله في شرف اصحاب الحديث صفحة (٤٦) .

ومن أراد أن يطلع على أدلة القوم فعليه بكتاب « **شرف أصحاب الحديث** » للخطيب البغدادي ، فإنه جمع فأوعى ، ومن سره أن يقف على مطاعن أهل السوء والبدع في أهل الحديث فعليه بكتاب « **تأويل مختلف الحديث** » لابن قتيبة الدينوري فقد ذكرها وفندها فأوفى فجزاهما الله خيراً .

هذا وقد اتضح للقارىء أن سعيد حوى يرى الحق خلاف ما عليه أهل الحديث لأن الحق هو ما عليه الطائفة الناجية وهو لا يرى أنهم هم الفرقة الناجية ، إذن فالحق مع غيرهم وهم على ضلال ، لأن الأمر يتعلق بالعقيدة قال: « وإذا قبل الاختلاف في الفقه ، فإن الاختلاف في العقائد مردود ففي الفقه حق وخطأ ، أما في العقيدة فحق وضلال »[٣٠٣]

ومن المعلوم أن سعيداً يخالف أهل الحديث في عقيدتهم ، فهو يرى أن العقيدة الصحيحة السليمة المجمع عليها هي عقيدة أبي منصور الماتريدي ، وعقيدة الأشاعرة المنسوبة لأبي الحسن الأشعري[٣٠٤] . وقد بينا أنه لا يقصد

---

(٣٠٣) جند الله ثقافة واخلاقاً ص ١١٥

(٣٠٤) جولات في الفقهين ص (٦٦ ، ٨١)

بعقيدة أبي الحسن التي سبق بيانها في الإبانة والمقالات ورسالة أهل الثغر ونقلها عنه العلماء ، وإنما يريد عقيدة الأشاعرة التي ذكرها صاحب جوهرة التوحيد في قوله :

وكل نَص ٍ أَوْهَمَ ٱلْتَشْبِيها ... أَوِلْهُ أو فَوضْ وَرُم التَنْزِيها

قال شارحها الباجوري:« ومنه قوله تعالى:﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ فالسلف يقولون: استواء لا نعلمه ، والخلف يقولون: المراد به الاستيلاء والملك كما قال الشاعر :

قد استوى بِشْرٌ على العراق ... من غير سيف ولا دم ٍ مهراق

ثم قال : وطريقة الخلف أعلم وأحكم لما فيها من مزيد الايضاح والرد على الخصوم ، وهي الأرجح ، ولذلك قدمها المصنف ، وطريقة السلف أسلم لما فيها من السلامة من تعيين معنى قد يكون غير مراد له تعالى »

إن هذه الفقرات من كلام الشارح ظلمات بعضها فوق بعض ، أولها تأويل الاستواء بالاستيلاء ، وثانيها زعمهم أن مذهب السلف أسلم ومذهب الخلف أعلم وأحكم ، وثالثة الأثافي التقول على السلف دون علم ولا هدى ولا كتاب منير حيث زعموا أن مذهبهم التفويض ، وهم من التفويض برءاء براءة الذئب من دم ابن يعقوب ، وقد مَنّ الله علينا وبينا فساد هذه الأضاليل في كتابنا الجماعات الإسلامية صفحة (١١٠ ـ ١٢٥) من الطبعة الثانية .

ناهيك أن هؤلاءِ المقلدة خالفوا أئمتهم الذين لهم ينتسبون ، وعلى كتبهم يعكفون .

فالأشاعرة خالفوا الأشعري في قضية الاستواء ، وسائر الأسماء والصفات ، فهو يقول عن الاستواء : « إن قال : ما تقولون في الاستواء ؟ قيل

له : نقول إن الله عز وجل يستوي على عرشه استواء يليق به من غير طول استقرار كما قال : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ وقد قال تعالى: ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه ﴾ وقال ﴿ بل رفعه الله إليه ﴾ وقال تعالى: ﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه ﴾ وقال تعالى حاكياً عن فرعون لعنه الله: ﴿يا ها مان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى ، وإني لأظنه كاذباً ﴾ * كَذَّبَ موسى عليه السلام في قوله أن الله سبحانه فوق السماوات وقال تعالى: ﴿ أأمنتم في السماء أن يخسف بكم الأرض ﴾ فالسماوات فوقها العرش فلما كان العرش فوق السماوات ، قال : ﴿ أأمنتم من في السماء ﴾ لأنه مستو على العرش الذي فوق السماوات وكل ما علا فهو سماء ، والعرش أعلى السماء ، وليس إذا قال : ﴿ أأمنتم من في السماء ﴾ يعني جميع السماوات وإنما أراد العرش الذي هو أعلى السماوات ألا ترى الله تعالى ذكر السماوات فقال تعالى: ﴿ وجعل القمر فيهن نوراً ﴾ ولم يرد أن القمر يملؤهن جميعاً وأنه فيهن جميعاً ورأينا المسلمين جميعاً يرفعون أيديهم إذا دعوا نحو السماء ، لأن الله تعالى مستو على العرش الذي هو فوق السماوات فلولا أن الله عز وجل ، على العرش ، لم يرفعوا أيديهم نحو العرش كما لا يحطونها إذا دعوا إلى الأرض وقد قال قائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية : إن معنى قول الله تعالى: ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ أنه استولى وملك وقهر وأنه تعالى في كل مكان **وجحدوا أن يكون الله عز وجل مستو على عرشة كما قال أهل الحق** وذهبوا في الاستواء إلى القدرة . . . . »[305]

---

* كثير من أهل البدع المعاصرين إذا قلت لهم أن الله في السماء مستو على عرشه بائن من خلقه استواء يليق بجلاله وكماله ، قالوا : هذا إيمان فرعوني ، ويستدلون بهذه الآية ظانين أن فرعون ـ لعنه الله ـ هو الذي قال أن الله في السماء ، والحقيقة أن الاعتقاد أن الله في السماء إيمان موسى ، فأنكر عليه فرعون كما بين أبو الحسن الأشعري رحمه الله . . . . فانظر رحمك الله إلى هذا الفهم السقيم الذي يحرف آيات القرآن الكريم . . . إنه التعصب الذي يعمي ويصم

(٣٠٥) الإبانة عن أصول الديانة ، الأشعري ، تحقيق الدكتورة فوقية (٢/١٠٥ ـ ١٢٠)

بينما الأشاعرة ذهبوا في الاستواء إلى الاستيلاء ، كما صرح الباجوري أثناء شرحه على جوهرة التوحيد .

والعجيب أن سعيداً يدعو إلى دراسة هذا الكتاب في أخطر مرحلة - مرحلة التكوين - من أطوار العمل الإسلامي(٣٠٦)

ولم يكتف الإخوان باعتقاد عقيدة الخلف ، بل أرادوا من السلفيين أن يتنازلوا عن عقيدتهم ، ويلتقوا مع أفراخ الخلف الذين حرفوا الكلم عن مواضعه ، قال البنا رحمه الله في رسالة العقائد:« ونحن نعتقد أن رأي السلف من السكوت وتفويض علم هذه المعاني إلى الله تبارك وتعالى أسلم وأولى بالإتباع* ، حسماً لمادة التأويل والتعطيل ، فإن كنت ممن أسعده الله بطمأنينة الإيمان وأثلج صدره ببرد اليقين فلا تعدل به بديلاً ، ونعتقد إلى جانب هذا أن تأويلات الخلف لا توجب الحكم عليهم بكفر ولا فسوق ، ولا تستدعي هذا النزاع الطويل بينهم وبين غيرهم قديماً وحديثاً ، وصدر الإسلام أوسع من هذا كله ، وقد لجأ أشد الناس تمسكاً برأي السلف رضوان الله عليهم ، إلى التأويل في عدة مواطن ، وهو الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه* ، من ذلك تأويله

---

(٣٠٦) في آفاق التعاليم ص ٧٦

* هذا تقول على السلف دون علم فإن التفويض مذهب نفاة بعض الصفات وهم الأشاعرة ، الذين يثبتون الصفات العقلية ، وينفون الصفات الفعلية ، ويؤولون الصفات الخبرية ، وقد صرح بذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في الرسالة التدمرية ، ناهيك أن البنا قرر أن مذهب السلف أسلم ، لكنه لم يصرح بأنه أعلم وأحكم مما يوحي أنه يرى أن مذهب الخلف أعلم وأحكم . . . كيف لا وهو لم يأخذ من مذهب السلف إلا الاسم والأسماء لا تغير الحقائق .

* إن هذه الرواية المنسوبة للإمام أحمد محض اختلاق فهل تكرم الأستاذ حسن البنا وذكر المرجع الذي اعتمد عليه ؟ قال شيخ الإسلام في شرح حديث النزول (ص ٥٥) طبعة المكتب الإسلامي:« وأما ما حكاه أبو حامد الغزالي عن بعض الحنابلة : أن الإمام أحمد لم يتأول إلا ثلاثة اشياء ، « الحجر الأسود يمين الله في الأرض » و « قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن » و « إني أجد نفس الرحمن من قبل اليمن » فهذه كذب على أحمد ، لم ينقلها أحد عنه بإسناد ولا يعرف أحد من أصحابه نقل ذلك عنه ، وهذا الحنبلي الذي ذكر عنه أبو حامد مجهول لا يعرف لا علمه بما قال ، ولا صدقه فيما قال » ، قلت : وقد أعتمد البنا على ما ذكره الغزالي دون أن يشير إلى ذلك ولو أشار لكان عهدة ذلك على الغزالي لكنه أراد أن يحمل خطأ فوق خطأه ودليلنا أنه فعل ذلك فقد نقل تخريج الحافظ العراقي للحديث الثالث (قال العراقي رواه أحمد من حديث أبي هريرة في حديث قال فيه : « وأجد نفس ربكم من قبل اليمن » ورجاله ثقات) وهذا من تخريجات العراقي لأحاديث إحياء علوم الدين . فهلا استوثق هؤلاء القوم لدينهم ولم يتبعوا كل ناعق . . . إنها البضاعة المزجاة في علم الحديث الشريف . . . ثم يقولون حسن البنا بلغ مرتبة الاجتهاد !!

الحديث.(الحجر الأسود يمين الله في أرضه) وقوله ﷺ:(قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن) وقوله ﷺ:(إني لأجد نفس الرحمن من تلقاء اليمن)[٣٠٧]»وقد أعجبني رد الدكتور عمر الأشقر حيث قال:« حاول بعض المعاصرين كالشيخ حسن البنا والشيخ حسن أيوب وغيرهما أن يهونوا من خطيئة هؤلاء الذين عرفوا باسم (الخلف) وأن يقربوا بين وجهة نظر السلف والخلف ، ولكن الحقيقة التي يجب أن تظهر وتدرك أن مذهب الخلف الزاعمين أن ظاهر الصفات غير مراد المؤولين لها ، مذهب بعيد عن الصواب ولا لقاء بينه وبين مذهب السلف ، ولا يشفع لهم حسن نيتهم ، فحسن النية لا يجعل الباطل حقاً »[٣٠٨] .

وبعد هذا البيان لم يبق شك أن الإخوان المسلمين يفتقرون إلى أهم عنصر في جماعة المسلمين ألا وهو سلامة العقيدة ، ووضوح المنهج ، واتباع أهل الحديث . . . ولو أردنا أن نطبق باقي المواصفات التي قال بها سعيد حوى لرأينا عجباً . هذا من الناحية العلمية ، أما العملية فالإخوان ليسوا جماعة واحدة بل جماعات متعددة بعدد الأقطار المتواجدين فيها ، وهذه الجماعات الكثيرة مختلفه فيما بينها منهجا وسلوكاً وتربية ، وليس لها من الإخوانية إلا الاسم ، ومن المعلوم أن وحدة الجماعة ينظر إليها من خلال وحدة المنهج والعقيدة ، وليس من خلال وحدة الأسماء والشعارات .

إنك لتجد الجماعة الواحدة في بعض الأقطار منقسمة على نفسها عدة اتجاهات ، ففي سوريا مثلاً حدث انشقاق وانقسام في نهاية الستينات ، ذهب بوحدة الإخوان ، ومزقهم الى أحزاب كثيرة ، وشتتهم إلى بضع فرق :

---

(٣٠٧) مجموعة رسائل البنا رسالة العقائد ص ٤١٧

(٣٠٨) العقيدة في الله ، عمر سليمان الأشقر ، مكتبة الفلاح ص (٢٠١)

الطلائع الإسلامية التي يرأسها الأستاذ عصام العطار ، والطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين التي تسمي نفسها كتيبة الشهيد مروان الحديد وعلى رأسها الأستاذ عدنان عقلة ، والإخوان المسلمون وعلى رأسهم الأستاذ عدنان سعد الدين والشيخ سعيد حوى والأستاذ البيانوني . . . . الخ ، حتى إنك لتجد في بعض الدول الخليجية ست جماعات كلها تدعي أنها الإخوان ، وتقبع تحت مظلة هذا الاسم العام .

ولا ننسى أن نذكر بأن محاولات جرت ، وجهود بذلت ، لرأب الصدع ، وتوحيد الجهد . . . ولكنها لم تلبث عشية أو ضحاها حتى تلاشت وتبخرت أمام إعراض القادة ، وعدائهم المستحكم* . . . وما أسطورة الوفاق ، وقرار الدمج الذي ولد ميتاً عن المسلمين ببعيد .

---

* لم تتسع صدور قادة الإخوان المسلمين لهوة الخلاف الذي أفسد قلوبهم ، وشتت شملهم ، وفرق جمعهم ، وأضعف صفهم ، وذهب بريحهم ، وأفشل خططهم ، فلم تستطع اخفائه وقد حاولت طويلاً التستر عليه ، فبدأت تنضح الحقد الأسود على صفحات المجلات والجرائد .

ولعل آخر دليل ملموس تبصره عين القاريء المسلم واضحاً وضوح الشمس في رابعة النهار ، وأنصع من الربابة في السماء ، ما نشرته مجلة المجتمع الكويتية في عددها (٥٧١) الصادر بتاريخ ٢٥/ رجب/١٤٠٢ هـ الموافق ١٨/أيار/١٩٨٢ م تحت عنوان خبر هام : « فصلت قيادة المجاهدين في سوريا السيد عدنان عقلة ، وذلك بناء على مخالفات كثيرة صدرت منه » ، ونتيجة لذلك أصدرت الطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين بياناً في ٥/شعبان/١٤٠٢ هـ الموافق ٢٨/أيار/١٩٨٢ م ونشرته جريدة اللواء الأردنية في عددها (٤٨٤) الصادرة يوم الأربعاء بتاريخ ١٧/شعبان/١٤٠٢ هـ الموافق ٩/حزيران/١٩٨٢ م ، يدحض هذا الخبر ويفنده جاء في الفقرة الثالثة « إن قيادة الطليعة المقاتلة ـ قيادة المجاهدين ـ لا علم لها البتة بما نشر في مجلة المجتمع وهي تنفي كل ما جاء فيه نفياً قطعياً ، وليست مسؤولة عنه مطلقاً مؤكدة في الوقت نفسه أن الأخ عدنان عقلة ، خلافاً لما جاء في المجلة المذكورة ، كان وما زال الناطق الرسمي باسم الطليعة المقاتلة ـ المجاهدين ـ ، والقيادة غير مسؤولة عن أي تصريح أو قول يصدر عن سواه كائناً من كان »

واتهم الجهة التي أذاعت الخبر بأنها محسوبة على الصف الإسلامي ، وتروج شائعات ما أنزل الله بها من سلطان جاء في الفقرة الأولى « دأبت الجهة التي تقف وراء نشر الخبر ، والمحسوبة على الصف الإسلامي ـ ومع الأسف ـ على ترويج شائعات مغرضة . . وافتراءات كاذبة تتنافى وأخلاق الرجال فضلاً عن أخلاق المسلمين » ويتهمها بالعمل لخدمة مصالح أعداء الله « وإننا في الطليعة المقاتلة نخشى ـ مخلصين ـ أن يكون وراء نشر مسلسلات الكذب هذه صفقات ما . . تخدم أعداء الله » .

وهدد بأن صمت المجاهدين سينطق بفضائح هذه الجهة التي تزول من هو لها الجبال ، وتجعل الولدان شيبا ، وسيسلط الضوء على ما يدور في الخفاء وهو أعظم ، ثم دعا هذه الجهة إلى اللقاء وجهاً لوجه أمام محكمة إسلامية محايدة جاء في الفقرة السادسة « إن قيادة الطليعة المقاتلة ـ من خلال مسؤوليتها الكبيرة أمام الله عز وجل ـ تحيطكم والمسلمين علماً أن الجهة التي

وإن تعجب فعجب إصرار سعيد حوى على قوله أن الإخوان هم جماعة المسلمين . . . إنها عصا الإرهاب الفكري التي يسوسها التعصب الحـزبي ، تريد أن تسوق المسلمين إلى كتائب الإخوان ، ليقدموا قرابين للطواغيت الذين اتخذوا القرآن مهجوراً ، ورأوا ظلام الباطل نوراً ، ودعوة الحق ثبوراً ، وأحلوا قومهم داراً بوراً .

كانت وراء الخبر الكاذب في مجلتكم ليس لها أية علاقة بحركتنا الجهادية المباركة ، اللهم إلا تبني عملياتنا الجهادية التي هزت ضمائر المسلمين ، وحركت كوامن الشوق في نفوسهم التواقة للجهاد والاستشهاد وإلا جباية الأموال الطائلة باسم المجاهدين بعد أن منحت نفسها لقب قيادة الثورة الإسلامية ، وتدليلاً على صحة ما نقول فإنّا ندعوهم إلى اللقاء وجهاً لوجه في محكمة إسلامية محايدة ، لنقيم الحجةعليهم ، ولنبين للمسلمين كل ممارساتهم الخاطئة التي عادت بأسوأ النتائج على حركتنا الجهادية المباركة »

وليعلم القاريء المسلم إننا ذكرنا ما ذكرنا لأننا التزمنا أن نقول الحق بدليله ، وهذا تالله هو العلم الذي تحيى به القلوب المطمئنة التي لم تُعَمَّد في نهر التعصب الحزبي ، ورحم الله ابن قيم الجوزية القائل :

والعلم معرفة الهدى بدليله ... ما ذاك والتقليد مستويان

ملاحظات

١ - الجهة التي ذكرت في بيان الطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين هي الجماعة التي يرأسها الأستاذ عدنان سعد الدين والشيخ سعيد حوى والأستاذ البيانوني ، والدليل على ذلك أنه وصفها بـأنها منحت نفسها لقب قيادة الثورة الإسلامية وبالرجوع إلى ميثاق الثورة الإسلامية في سوريا تلاحظ أن الصفحة الأخيرة ذيلت بالأسماء الثلاثة المذكورة آنفاً ، وقد جاء أيضاً في الفقرة الرابعة من البيان ما يلي

« أقدمت الجهة المعنية ـ إياها ـ على اللقاء مع الجاهلية في منتصف الطريق ، في إطار ما سمي « ميثاق التحالف الوطني لتحرير سورية » حيث عقدت حلفاً مع الأحزاب الجاهلية في سوريا المصابرةومن المعلوم بداهة أن الجهة التي وقعت ميثاق الجبهة الوطنية باسم الإخوان المسلمين الأسماء المذكورة .

٢ - خلافات أطراف الإخوان المسلمين تجاوزت الهمس والعتاب بعدما عجز الوسطاء من الإسلاميين عن حلها ، فاتسع الخرق على الراقع ، وتحولت الأخوة إلى عداوة والمودة إلى شحناء . . . وتحدثت الصحف والمجلات عن خلافات الإخوان وقد كان من يتحدث عن هذه الخلافات ناصحاً ومحذراً يصادف عنتاً ومشقة من اخوان البلاد العربية .

نتائج

والذي نريد أن نقرره كنتيجة طبيعية وفهم مستقيم يضع النقاط على الحروف ما يأتي .

١ - إن كان ما قاله كل طرف عن الآخر صحيحاً فجميعهم لا يستحقون قيادة مجموعة فضلاً عن جماعة الإخوان المسلمين ، بله جماعة المسلمين .

٢ - لن تفلح جماعة يقودها ويتولى أمرها ويدبر شؤونها مثل هؤلاء النفر من الناس .

٣ - إن كان ما قاله كل طرف عن الآخر كذباً فكلاهما يفجر في الخصومة ويكذب في الحديث وهـذه الأخلاق لا ترشحهم لقيادة جماعة المسلمين ، ولن تكون جماعتهم في يوم من الأيام جماعة المسلمين إلا أن يشاء الله ويتركوا ما هم عليه .

٤ - ومن المؤسف أن يكون الشباب الإسلامي كبش الفداء والضحية لنزوات أناس يمنون أنفسهم بأرفع المناصب في دولة الإسلام المرتقبه ألا فليأخذ الشباب حذرهم . . . ألا هل بلغت . . . ؟ اللهم فاشهد ، اللهم فاشهد .

من هي جماعة المسلمين ؟

وجماعة المسلمين التي جاءت في حديث حذيفة رضي الله عنه (كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني ، فقلت يا رسول الله ، إنا كنا في جاهلية وشر ، فجاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال : نعم . قلت : وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال : نعم وفيه دخن . قلت وما دخنه ؟ قال : قوم يهدون بغير هديي ، تعرف منهم وتنكر ، قلت : فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال : نعم . دعاة على أبواب جهنم ، من أجابهم إليها قذفوه فيها . قلت : يا رسول الله ، صفهم لنا ، قال : هم من جلدتنا . ويتكلمون بألسنتنا . قلت فما تأمرني إن أدركني ذلك ؟ قال : **تلزم جماعة المسلمين وإمامهم ، قلت : فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال : فاعتزل تلك الفرق كلها ، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك**)(٣٠٩) .

هي الجماعة المنتظمة في سلك الخليفة المسلم أو الإمام الشرعي الذي اجتمعت على تأميره ، فالإمام شرط في جماعة المسلمين ولا يكون إماما إلا إذا كان منفذاً ، وقول سعيد حوى:« جماعة المسلمين مستمرة إلى ما بعد نزول المسيح عليه السلام وإمام المسلمين ليس شرطاً حتى يعتبر إماماً أن تكون بيده سلطة تنفيذية ، فقد نص فقهاء الشافعية أن منصب الخلافة إذا فقد تنتقل أحكام الخلافة إلى أعلم أهل زمانه ، والمراد بالأعلم هنا من اجتمع له العلم المؤهل للقيام بشأن المرحلة .

---

(٣٠٩) أخرجه البخاري في كتاب الفتن باب كيف الأمر اذا لم تكن جماعة ؟ ومسلم كتاب الإمارة باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن .

إن الإخوان المسلمين من خلال حكم الله ، ومن خلال القواعد المنبثقة عن الشورى ، ومن خلال الشورى ، يحاولون أن يصلوا إلى جماعة إسلامية كاملة ، على رأسها مرشد يقود المرحلة المعاصرة ، فهل رأى أحد في هذه الأمة رجلاً كحسن البنا ؟ وهل رأى الجيل الحاضر رجلاً أصلب من حسن الهضيبي ؟ وإن لخليفة الإثنين في أعناقنا لبيعة»[٣١٠] يفتقر إلى دليل ، فهل تجب البيعة لإنسان لا يملك أن ينفذ أحكام الله في جماعته فضلاً عن عامة المسلمين ؟ وأما إدعاءه أن حسن البنا رحمه الله أعلم أهل زمانه فهو تعصب لا يخفى ومخالفه للشرع ، فإذا كان موسى عليه السلام وهو رسول الله قد انكر عليه الله عندما سئل : هل تعلم أحداً اعلم منك ؟ فأجاب : لا . وإليك التفاصيل كما أخرجها البخاري في كتاب العلم (بينما موسى في ملأ من بني اسرائيل إذ جاءه رجل فقال : **هل تعلم أحداً أعلم منك ؟ قال موسى : لا ، فأوحى الله إلى موسى : بلى ، عبدنا خضر** ، فسأل موسى السبيل إليه (وفي رواية : لقيه) فجعل الله له الحوت آية ، وقيل له : إذا فقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه ، وكان موسى يتبع أثر الحوت في البحر ، فقال لموسى فتاه : ﴿ أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ﴾ قال موسى : ﴿ ذلك ما كنا نبغ ، فارتدا على أثارهما قصصا فوجدا ﴾ خضراً ، فكان من شأنهما الذي قص الله عز وجل في كتابه)[٣١١] نعم إذا كان أمر موسى كذلك فما بالنا نحن أليس من الواجب أن نتأدب مع الله ؟ ولا ننازعه علمه فإن هذه الدعاوى تحمل في ثناياها إدعاء الغيب .

أما قياس بعضهم حالنا على حال الرسول قبل الهجرة وتكوين الدولة

---

(٣١٠) المدخل إلى دعوة الإخوان المسلمين ص ٣٠

(٣١١) أنظر مختصر صحيح البخاري للألباني (١ / ٣٠ - ٣١)

فقياس مع الفارق ، ناهيك أن الرسول كان منفذاً لأوامر الله التي تنزلت عليه في تلك الفترة ، ومن ضلال بعضهم قوله : باستطاعتنا أن ننفذ الأحكام التي نزلت فقط في العهد المكي ، لأننا الآن في عهد الاستضعاف ، وهذا يعني والعياذ بالله إباحة ما حرمه الله . . . نعوذ بالله من الخذلان .

واعلم أن ما اخترناه هو اختيار شراح الحديث كالنووي رحمه الله في شرحه على صحيح مسلم كتاب الإمارة (١٢/٢٣٦) ، وابن حجر رحمه الله في الفتح (١٣/٣٧) ، وجزم به الطبري رحمه الله كما في الفتح (١٣/٣٧) . وتحفة الأحوذي (٦/٣٨٥) ، قال:« **والصواب أن المراد من الخبر لزوم الجماعة الذين في طاعة من اجتمعوا على تأميره فمن نكث بيعته خرج عن الجماعة** » فإذا انفرط عقد الخلافة كواقع الناس اليوم وافترق المسلمون شيعاً وأحزاباً كل حزب بما لديهم فرحون ، فعلى المسلم اجتناب هذه الفرق واتباع صراط الذين أنعم الله عليهم ولو كان وحده ، « **لأن الجماعة ما وافق الحق ولو كنت وحدك** »[٣١٢] . قال الإمام الترمذي رحمه الله : « سمعت الجارود بن معاذ يقول سمعت علي بن الحسن يقول سئل عبد الله بن المبارك : من الجماعة ؟ فقال: أبو بكر وعمر ، قيل له قد مات أبو بكر وعمر ، قال فلان وفلان . قيل له : قد مات فلان وفلان ؟ فقال عبد الله بن المبارك : أبو حمزة السكري جماعة قال أبو عيسى (أي الترمذي) وأبو حمزة هو محمد بن ميمون وكان شيخاً صالحاً ، وإنما قال هذا في حياته عندنا »[٣١٣] .

هذه الآثار تفسر الاستمرارية في أحاديث الطائفة الظاهرة (**لا تزال طائفة من أمتي**) فإن الطائفة في لغة العرب تقع على الواحد فما فوق .

---

(٣١٢) من قول ابن مسعود رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق بسند صحيح عنه أنظر مشكاة المصابيح تحقيق الألباني (١/٦١)

(٣١٣) سنن الترمذي (٤/٤٦٧)

إذن لا يعني استمرار الطائفة الظاهرة لما بعد نزول المسيح . **وجود جماعة وإمام ، وإنما هذا يكون في حالة الظهور ، واعلم أن الطائفة الناجية** من حيث الوجود فاستمرار ، وأما من حيث الظهور والغلبة فتكرار .

ومن ثم فحديث حذيفة رضي الله عنه بَيَّن هذا الأمر ، فإن كان لهم جماعة وإمام فالواجب ملازمتهم وعدم الشذوذ عنهم ، وهذا الذي أراده الإمام مسلم رحمه الله حين ترجم للحديث باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن ، وإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام فيعتزل تلك الفرق ويبقى على منهج الحق الموروث عبر العصور فإنه جماعة ولو كان وحده ، وهذا الذي أراده الإمام البخاري رحمه الله حين ترجم للحديث في كتاب الفتن : باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة ؟ قال الطبري رحمه الله:« **وفي الحديث إنه متى لم يكن للناس إمام فافترق الناس أحزاباً فلا يتبع أحداً في الفرقة ويعتزل الجميع إن استطاع ذلك خشية من الوقوع في الشر** »[314] .

هذا هو فهم أئمة السلف رحمهم الله للجماعة إلا أن المفهوم المعاصر للتنظيم والحزبية طغى على أذهان الإسلاميين فراحوا يقيسون النصوص الشرعية على المفاهيم الغربية ، ونسوا أو تناسوا أن هذه السبيل يريدها لهم أعداء الله حيث يضعون المفاهيم الإسلامية في قوالب جاهلية ، كاشتراكية الإسلام ، وديمقراطية الإسلام، ووطنية الإسلام .

وهذا لا يعني عدم العمل لإقامة حكم الله في الأرض ، واستئناف الحياة الإسلامية ، وتكوين مجتمع رباني ، بل قمة الدعوة إلى ذلك وسبيل تحقيق ذلك ، فإن الأمور المشار إليها آنفاً ثمرة الاتباع لسنن الهدى وإن قل

---

(٣١٤) فتح الباري (١٣/ ٣٧)

السالكين ، فالعبرة في الكيف لا الكم ، قال تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّلِحَتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُم . وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الفَٰسِقُونَ ﴾[٣١٥] .

إن هذه الآية ترسم معالم الطريق أمام الدعاة العاملين الواثقين من نصر الله لأنهم نصروا الله ، فالاستخلاف في الأرض والتمكين لدين الإسلام حتى يرث الأرض ومن عليها وعد قطعي من الله الذي لا يخلف الميعاد ، ونتيجة حتمية للإيمان والعمل الصالح الذي يتبع ولا يبتدع ، ويقتدي ولا يبتدي ، فإن فعلنا ذلك كان لنا ذلك ، وإلا فهو النقص والانحراف الذي اجتال المسلمين عن المحجة البيضاء ، فَعُمِّيَتْ عليهم السبل وتركت حليمهم حيران . . . إلا أنها لا تخدع إلا البسطاء السذج الذين زَيَّنَ لهم الشيطان أعمالهم ويحسبون أنهم يحسنون صنعا ، أما الذين استضاءوا بنور الوحيين ، واقتبسوا من نور أئمة المسلمين المشهود لهم بالخير فلن يضلوا الطريق ، لأن الله يهديهم بإيمانهم سبل السلام .

---

(٣١٥) النور : ٥٥

الخاتمـــة

مهما حاول الدعاة في إصلاح شباب هذه الأمة فلن يفلحوا إلا إذا سلكوا طريقة رسول الله ﷺ في السلوك والاعتقاد ، وهذا ليس موضع خلاف بين العاملين المخلصين .

إلا أن هذه الشريعة الربانية وقفت شوكة في حلق أعدائها ، فيئسوا أن يجتثوا أصولها من الأرض علانية ، عندئذٍ بدأوا يحاولون التسرب إلى حصوننا التي تحمي إسلامنا ، وقد نجح بعضهم وأصبح كثير منهم في مواقع تمكنهم من أن يدسوا خططهم وينفذوها في صمت ، وغفلة من الناس لجهلهم بالكتاب والسنة .

ولقد هب علماء السنة للرد على هذه الزمرة ، ولبيان المذهب الحق في ذلك أداء للأمانة ، ووفاء بالعهد الذي أخـذه الله على أولي العلم في بيـان الحق ، وعدم كتمانه .

ورأت هذه الطائفة اندحارها في جميع الجولات ، فبدأت تستر مآربها الهدامة من وراء أسماء خلابة براقة ، وساروا يشيعون ويذيعون أن جميع السبل المخالفة لمنهج السلف بادت ، والفرق المنحرفة انقرضت ، فلا حاجه للبحث في هذه المذاهب القديمة التي أكل الدهر عليها وشرب . لأن ذلك بعث لها من بعـد موتها ، وتفريق لكلمة المسلمين .

ونحن نعلم أن هذه المذاهب آراء واعتقادات يعتنقها كثير من الناس وهم لا يعرفون ، وبعضهم يتجاهلون تجاهل العارف ، فكان هذا باعثاً للهمة في

تحقيق هذه المهمة ، ولست بمدع أني بلغت النهاية ، بل - إن أحسنت الظنون - قلت خطوة في البداية ، فميدان العمل فيه سعة لمن شحذت همتـه ، وبذل النصح شرعه لمن خلصت نيته ، فإنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى .

وقد رأيت أني لست في الميدان وحدي ، فقد تنبه باحثون إلى خطورة هذا الفكر ، فبدأوا في الكتابة والنشر . حيث اطلعت على كتابين وأنا في الحروف الأخيرة من البحث . فأردت أن أنوه إليهما شاكراً لهـما جهدهما . أما الأول فرسالة ماجستير بعنوان « الولاية والأولياء في الإسلام » مقدمة من الخضر عبد الرحيم أحمد إلى جامعة أم القرى ، وهي رسالة لم تطبع بعد ، وقد أشار فيها الباحث إلى بعض الضلالات المبثوثة في كتـاب « تربيتنـا الروحيـة » وكتاب « جولات في الفقهين » . وأما الآخر فتعليقات وردت في مقدمة كتاب « الرد على الجهمية » للحافظ ابن منده بقلم الدكتور علي بن محمد نـاصر الفقيهي الأستاذ المساعد في الجامعة الإسلامية .

هذا وقد وصلني شريط كاسيت عليه محاضره للدكتور عبد العزيز القاري ألقاها في الجامعة الاسلامية نبه خلالها إلى بعض الإنحرافات الموجودة في كتاب تربيتنا الروحية للمؤلف المذكور .

وقد بلغني أن الشيخ ربيع بن هادي المدرس في كلية الحديث في الجامعة الإسلامية يقوم بإعداد دراسة في هذا الموضوع .

إن هذه المؤشرات بوادر يقظة إسلامية للوقوف في وجه الدعوات التي تريد إصلاح الشباب المسلم ، ولكنها لم تسلك المنهاج المؤدي لذلك وكم كنت

أتمنى أن تكون هذه الدراسات والإشارات مجهرية فاحصة واعية لم تدع شبهة إلا صوبتها ، ولا اعوجاجاً إلا قومته ، ولكن جزى الله من أعان الإسلام - ولو بشطر كلمة - خيراً .

والحمد لله أولا وآخراً على توفيقه وهداه ، وهو وحده المستعان لا إله غيره ولا رب سواه .

وسبحانك الله وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، استغفرك وأتوب إليك .

وكتب

سليم الهلالي

٥ / شعبان / ١٤٠٢ هـ

أهم المراجع

الرقم	الكتاب	المؤلف
١)	الإبانة عن أصول الديانة	أبو الحسن الأشعري
٢)	الإحكام في أصول الأحكام	ابن حزم
٣)	الاحكام في أصول الأحكام	محمد بن علي الآمدي
٤)	إحياء علوم الدين	أبو حامد الغزالي
٥)	إرشاد الفحول	محمد بن علي الشوكاني
٦)	الاعتصام	أبو إسحاق الشاطبي
٧)	الاعتقاد	البيهقي
٨)	إعلام الموقعين	ابن قيم الجوزيه
٩)	الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء	ابن عبد البر
١٠)	الأنوار القدسية على هامش الطبقات	الشعراني
١١)	إيقاظ همم أولي الأبصار	الفلّاني
١٢)	الإيمان	ابن تيمية
١٣)	البداية والنهاية	ابن كثير
١٤)	بدعة التعصب المذهبي	محمد عيد عباسي
١٥)	تأويل مختلف الحديث	ابن قتيبة الدينوري
١٦)	تاريخ التشريع الإسلامي	محمد الخضري بك
١٧)	تاريخ الخلفاء	السيوطي
١٨)	تبيين كذب المفتري	ابن عساكر
١٩)	تربيتنا الروحية	سعيد حوى
٢٠)	التصوف بين الحق والخلق	محمد فهر الشقفة
٢١)	التعرف على مذهب التصوف	الكلاباذي

٢٢) تفسير القرآن العظيم — ابن كثير

٢٣) تقريب التهذيب — ابن حجر العسقلاني

٢٤) تلبيس إبليس — ابن الجوزي

٢٥) التوسل أنواعه وأحكامه — محمد ناصر الدين الألباني

٢٦) الجامع الصحيح — البخاري

٢٧) جامع بيان العلم وفضله — ابن عبد البر

٢٨) جند الله ثقافة وأخلاقاً — سعيد حوى

٢٩) جولات في الفقهين الكبير والأكبر — سعيد حوى

٣٠) حلية الأولياء — أبو نعيم الأصفهاني

٣١) الرد على الجهمية — ابن منده

٣٢) الرد على المنطقيين — ابن تيمية

٣٣) الرسالة — الشافعي

٣٤) رفع الريبة — محمد بن علي الشوكاني

٣٥) روح المعاني — محمود الآلوسي

٣٦) رياض الصالحين — النووي

٣٧) الدر المختار — ابن عابدين

٣٨) الدر المنثور — السيوطي

٣٩) دروس في العمل الإسلامي — سعيد حوى

٤٠) سلسلة الأحاديث الصحيحة — محمد ناصر الدين الألباني

٤١) السنن — أبو داود

٤٢) السنن — ابن ماجه

٤٣) السنن — الترمذي

٤٤) السنن — الدارمي

٤٥) شـذرات الذهب — ابن العماد الحنبلي

٤٦) شرح حديث النزول — ابن تيميـة

٤٧) شرح صحيح مسـلم — النـووي

٤٨) شرح العقيدة الطحاوية — ابن أبي العز الحنفي

٤٩) شرف أصحاب الحديث — الخطيب البغدادي

٥٠) الصحيــح — مسلم بن الحجاج

٥١) صحيح الجامع الصغير — الألباني

٥٢) عارضة الأحوذي — أبو بكر بن العربي

٥٣) العبــودية — ابن تيميـة

٥٤) العقـيدة في الله — عمر سليمان الأشقر

٥٥) فتـح البـاري — ابن حجر العسقلاني

٥٦) الفَرق بيـن الفِرَق — عبد القاهر البغدادي

٥٧) الفصل في الملل والأهواء والنحل — ابن حـزم

٥٨) فقـه السـنة — سيد سـابق

٥٩) في آفـاق التعاليم — سعيد حوى

٦٠) في ظـلال القرآن — سيد قطب

٦١) القائد إلى تصحيح العقائد — عبد الرحمن المعلمي

٦٢) قانون التأويـل — أبو حامد الغزالي

٦٣) قـوت القلـوب — أبو طالب المـكي

٦٤) الـكافي — الكلينـي

٦٥) الكامل في التاريخ — ابن الأثير الجزري

٦٦) كتـاب الله — سعيد حوى

٦٧) مجموعة رسائل حسن البنا — حسن البنا

٦٨) مجموعة الرسائل والمسائل	ابن تيميــة
٦٩) مجموعة الرسائل المنيرية	لعدد من العلماء
٧٠) المجمــوع	النـووي
٧١) مجموع الفتـاوى	ابن تيميـة
٧٢) مختصر العلو للعلي الغفار	محمد ناصر الدين الألباني
٧٣) المدخل إلى مذهب أحمد	ابن بدران الدمشقي
٧٤) المدخل إلى حركة الإخوان المسلمين	سعيد حوى
٧٥) مذكرات الدعوة والداعية	حسن البنـا
٧٦) مراقي الفلاح شرح متن الإيضاح	حسن الشر نبلالي
٧٧) مسائل الإمام أحمـد	لابنه عبد الله
٧٨) مشـكاة المصابيـح	الخطيب التبريزي ـ الألباني
٨٩) معرفة علـوم الحديث	الحاكم النيسابوري
٨٠) مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة	السـيوطي
٨١) مقالات الإسـلاميين	أبو الحسن الأشعري
٨٢) المقــدمة	ابن خلـدون
٨٣) من أجل خطوة إلى الأمام	سعيد حوى
٨٤) موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول	ابن تيميـة
٨٥) ميزان الاعتـدال	الذهبـي
٨٦) نقض المنطـق	ابن تيميـة

فهرست الكتاب